السيد جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤ — ١٣١٤ هـ) (١٨٣٩ — ١٨٩٧ م)

لئن كان محمد بن عبد الوهاب يرمي إلى إصلاح العقيدة ، ومدحت باشا يرمي إلى إصلاح الحكومة والإدارة ، فالسيد جمال الدين يرمي إلى إصلاح العقول والنفوس — أولا — ثم إصلاح الحكومة — ثانياً — ، وربط ذلك بالدين . «مدحت» يرى إصلاح الشعب من طريق إصلاح الحكومة ؛ وجمال الدين يرى إصلاح الحكومة من طريق إصلاح الشعب . مدحت يقول : إن الحكومة راع وإذا صَلَح الراعي صَلَحت الرعية ، والغاية (الدستور) فإذا وضع ونفذ فالخير كل الخير للأمة . ويقول جمال الدين : « إن القوة النيابية لأى أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعت من نفس الأمة ؛ وأى مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير ، أو قوة أجنبية محركة له ، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه » . فالعقول والنفوس أولا ، والحكومة ثانياً .

ماذا تنفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالح ؟ لقد علمنا التاريخ أن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كان في الأمة رأى عام يخيفها ، ويلزمها أداء واجباتها ، والوقوف عند حدها ؛ فإذا لم يكن ذلك فالطبيعة البشرية تُملي على الحكام أن يستأثروا بالمنافع ؛ وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها ، فإذا زالت حل محلها من لا يصلُح ؛ إذ لا شأن للأمة في اختيارها ، ولا رقابة لها على أعمالها .

يقول سنة ١٢٩٦ هـ : « هَبُوا أن مجلساً نيابيًا أنشىء فستجدون أن حزب الشمال لا أثر له ؛ وسيَفر الأعضاء كلهم إلى حزب اليمين ، وسيكونون كلهم آلة

صماء . . . وسيرى كل عضو أن الدفاع عن الوطن ، ومناقشة الحاكم الحساب قلة أدب ، وسوء تدبير ، وقلة حُنكة ، وتهوّرا» . لا . لا . العقول والنفوس هى المقدمة ، والحكومة الصالحة هى النتيجة .

* * *

أفغانى الأصل ، شريف النسب ، ينتمى إلى الحسن بن على (ولشرف النسب فى هذه البلاد حرمة وإجلال يفوقان ما فى غيرها من الأقطار) . يجمع إلى شرف النسب عزة السيادة ؛ فقد كان أهل بيته سادة على عمل من أعمال أفغان[1] . ولكن مالنا ولهذا كله ، فقد تنبُت النبتة الطيبة فى الأرض السَّبخة ، والنبتة الفاسدة فى الأرض الصالحة ، فإذا نبتت النبتة الصالحة فى الأرض الصالحة اكتفينا بالتسجيل . فأسرة جمال الدين لم تُنبت إلا جمال الدين ، وأسرة محمد عبده لم تنبت إلا محمد عبده ؛ وما أكثرَ الأسرَ التى تشبه أسرتيهما أو تفوقهما ، ومع هذا لم تنبت شيئاً . فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

تعلّم — كما يتعلّم شباب زمانه فى بلاده — الفارسية والعربية على طريقة تشبه الطريقة الأزهرية ، ولا تمتاز عنها إلا بدراسته الواسعة فى الفلسفة الاسلامية والتصوف ، كما هى عادة الفرس إلى اليوم ، فكان ذلك نواة ثقافته ؛ ودرس فى الهند الرياضة على الطريقة العصرية ، وساح سياحة طويلة فى الأقطار الإسلامية إلى مكة ، فاكسبه ذلك تجارب عملية واسعة ، وخبرة بحياة الشرق . ووقعت بلاده فى منازعات سياسية على من يتولى الملك ، فانغمس فيها وتشيَّع لجانب منها وقام منه مقام الوزير ، وانتصر وانهزم ، ولمس تدخل الدول ، فعلمه ذلك كله السياسة وخصومتها ، ودهاءها وألاعيبها .

وتعلم الفرنسية وهو كبير ؛ أتى بمن يعلمه الحروف الهجائية ، ثم انفرد بتعليم

(١) أعمال أفغان : أقطارها وما تحت حكمها من البلاد .

السيد جمال الدين الأفغاني في شبابه

نفسه نحو ثلاثة أشهر يحفظ من مفرداتها حتى استطاع أن يقرأ من كتبها و يترجم منها ، ثم توسع فى ذلك أثناء إقامته بباريس ؛ ومع هذا فلم يحذقها كل الحذق .

كم من الناس علموا أكثر مما علم ، وقرأوا أكثر مما قرأ ، ورطنوا أكثر مما رطن ، ولكن لم يكن لأحد منهم شخصية كشخصيته : ذكاء متوقد ، و بصيرة نافذة ، وتوليد للأفكار والمعانى من كل ما يقع تحت سمعه و بصره ، واستقصاء للفكرة حتى لا يدع فيها قولا لقائل « له سلطة على دقائق المعانى وتحديدها ، و إبرازها فى صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له ؛ وله قوة فى حل ما يُعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه . و إذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ؛ ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لَسَنٌ [1] فى الجدل ، وحِذق فى صناعة الحجة لا يلحَقه فيها أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ... »

« أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنقضّ منه الشهب ، فبينما هو حليم أوّاب [2] ، إذ هو أسد وثاب ؛ وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر .

أما خَلقه فهو يمثل لناظره عربيًّا محضاً من أهالى الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سَكَنَةِ الحجاز . رَبْعَة [3] فى طوله ، وسط فى بنيته

---

(١) اللسن : الفصاحة .

(٢) أواب : راجع إلى الاستغفار .

(٣) ربعة : متوسط القامة .

قمحيّ فى لونه ، عصبى دموى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين ، عظيم الأحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل المنظر ، هشّ بشّ عند اللقاء ، قد وفّاه الله من كمال خَلقه ما ينطق على كمال خُلقه[1] » .

فهم رسالته وما تتطلب من جهاد ، وما تقتضيه من أعباء ، فلم يرتبط بأسرة ولم يستعبده مال ، وعاش لأفكاره ومبادئه ، تكفيه أكلة واحدة فى اليوم كله ، وإن أفرط فى الشاى والتدخين . أعد نفسه للنفى فى كل لحظة ؛ فنافيه لا يتعبه إلا شخصه . ملابسه على جسمه ، وكتبه فى صدره ، وما يشغله فى رأسه ، وآلامه فى قلبه .

ولقد طوّف فى فارس والهند والحجاز والآستانة ، وأقام فيها . ولكن لعل أخصب زمنه ، وأنفع أيامه ، وأصلح غرسه ، ما كان فى مصر مدة إقامته بها من أول محرم سنة ١٢٨٨ إلى سنة ١٢٩٦ هـ (مارس سنة ١٨٧١ — أغسطس سنة ١٨٧٩) . ثمانى سنين كانت من خير السنين بركة على مصر ، وعلى العالم الشرقى ، لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها ، ولكن لأنه فيها كان يدفن فى الأرض بذوراً تتهيأ فى الخفاء للنماء ، وتستعدّ للظهور ثم الإزهار ، فما أتى بعدها من تعشّق للحرية وجهاد فى سبيلها فهذا أصلها ، وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت فى نموّها .

لقد جرّب « السيد » أن يبذُر بذوراً فى فارس والآستانة فلم تنبت ، ثم جربها فى مصر فأنبتت .

كان من حسنات رياض باشا أن أعجب « بالسيد » ورأى فيه عالما لا من طراز من عرَف من العلماء ، يعرف الدين ويعرف الدنيا ، ويجيد الفهم ويجيد القول ،

(١) من وصف الشيخ محمد عبده له .

فمكن له من البقاء فى مصر وسعى عند الحكومة فقررت له عشرة جنيهات شهرياً .

كانت هذه السنون الثمانى من أشقّ السنين على مصر ، إذ كان حالها حال أسرة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فلم تكتف بدخلها الذى يسد حاجتها ، فاستدانت لرفاهيتها ، حتى إذا بلغت الغاية فى الدَّين أخذ الدائنون يحجُرون عليها ويتدخلون فى شؤونها ، ويشرفون على مصادرها ومواردها ، ولا يتركون لها شيئاً من حرية التصرف ؛ فإذا الأسرة بائسة بعد نعيم ، وشقية بعد سعادة ، وإذا هى مغلولة الأيدى والأرجل والأعناق ، تحاول الخلاص فلا تجده ، وتتلمس طريق الحرية فلا تهتدى إليه .

فقد توالت القروض التى اقترضتها ؛ ففى المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٧٥ بلغت الديون نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهات ، فجاءت بَعْثة كيف Cave سنة ١٨٧٥ لفحص مالية مصر ، واقترحت لضرورة إصلاحها إنشاء مصلحة للرقابة على ماليتها ، وأن يخضع الخديو لمشورتها ، ولا يعقد قرضاً إلا بموافقتها .

وأنشىء صندوق الدين سنة ١٨٧٦ يتسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية . وأنشىء نظام الرقابة الثنائية فى هذه السنة أيضاً ، وكان من مقتضاه أن يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان : أحدهما إنجليزى لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة ، والآخر فرنسى لمراقبة المصروفات ، وأنشئت لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية . وجاءت لجنة تحقيق عليا أوربية سنة ١٨٧٨ لمراعاة مصالح الدائنين الأجانب ، وتدبير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم .

وتطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برياسة نوبار باشا يدخلها وزيران أوربيان أحدهما إنجليزى لوزارة المالية ، والآخر فرنسى لوزارة الأشغال .

ولا شك أن المال عصب الحياة ، فالمشرف عليه مشرف على كل شيء . فتوفير المال لأداء الديون يتطلب الإشراف على جميع الإدارات التى تُغِلّ المال ، وهذه الإدارات تحصّل المال من الفلاح ، وتقول إنه لا بد أن يكون آمناً على ماله ، مهيأة له وسائل إصلاح زراعته ، يُعامَلُ بالعدل فى تحصيل الضرائب منه ، فلا بد من الإشراف على هذه الشؤون كلها من أجل المال . وهكذا مَن أشرف على المال أشرف على كل شيء .

كل هذا حدث مدة إقامة « جمال الدين » فى مصر ، وكان من طبعه الانغماس فى السياسة ، ونمّى هذا الطبع فيه نشأته فى بيت حكم ، وانغماسه فيها أيام تنازع الأسرة المالكة فى الأفغان ، فكانت هذه الأحداث المصرية حافزة له على أن يعيد ما بدأ به من الاشتغال بالسياسة ، وحافزة للناس فى مصر على أن يجاوبوا حركته .

***

كان نشاطه التعليمى ذا شُعبتين : دروس علمية منظمة يلقيها فى بيته فى « خان الخليلى » ، ودروس عملية يلقيها بين زوّاره فى بيته وفى بيوت العظماء حين يرُدّ زيارتهم ، وفى « قهوة البوستة » بالقرب من « العتبة الخضراء » ، وحيثما كان فى المجتمعات .

فأما دروسه فى بيته ، فكان يلقيها على طائفة من مجاوِرِى الأزهر وبعض علمائه ، أمثال الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سَلْمان ، والشيخ إبراهيم اللَّقَانى ، والشيخ سعد زغلول ، والشيخ إبراهيم الهلباوى .

كان أكثر الكتب التى قرأها لهؤلاء وأمثالهم كتب منطق وفلسفة وتصوف وهيئة ، مثل كتاب الزوراء للدوانى فى التصوف ، وشرح القطب على الشمسية فى المنطق ، والهداية ، والإشارات ، وحكمة العين ، وحكمة الإشراق

فى الفلسفة ، وتذكرة الطوسى فى علم الهيئة القديمة ، وكتاب آخر فى علم الهيئة الجديدة .

هى كتب فلسفة على نحو ما يتصور الفلاسفة القدماء وفى العصور الوسطى ؛ فكانوا يعدّون المنطق مقدمة الفلسفة أو مدخلها ، ومن فروعها الإلهيات والطبيعة والفلك والطب وما إلى ذلك .

ويظهر لى أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة فى ذاتها ؛ فقد كان الشيخ حسن الطويل مثلا يقرأ بعض هذه الكتب فى الأزهر ولم يؤثّر أثره ، إنما كانت قيمتها فى أن كل فصل من فصولها ، أو جملة من جملها ، كان تُكَأَة يستند إليها الشيخ فى شرح أفكاره وآرائه ، والتبسُّط فى مناحى الفكر ، والتطبيق على الحياة الواقعة ، ونظرته إلى العالم كوحدة ، مازجاً التصوف بالفلسفة وبالهيئة وبغير ذلك . وهذا هو ما أقنع الشيخ محمد عبده من الشيخ وطمأن نفسه إذ قال : إنه « بعد حضوره فى الأزهر سنين ملّ الدروس المعتادة ، وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً ، وتميل إلى العلوم العقلية ؛ وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً فى الأزهر بعلم المنطق ، فحضره عليه ولكن لم يكن يشفى ما فى نفسه ، بل كانت تتشوّف[1] دائماً إلى علم غير موجود . . . وقرأ الشيخ حسن الطويل شيئاً من الفلسفة ، ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان درسه احتمالات ، حتى جاء السيد جمال الدين فوجد عنده طلبته وأقصى أمنيته » .

فهذه الكتب التى قرأها إنما قيمتها فى نفس جمال الدين ، والدنيا تتلوّن بلون منظار الرائى ، والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس كلهم ، ولكن لا يفهمها إلا القليل .

ما هذا الشىء الجديد الذى وجده « محمد عبده » عند « جمال الدين »

(١) تتشوف : تتطلع .

فاطمأن به واهتدت نفسه إليه ؟ هو ما عند جمال الدين من أصول كُلِّية هى عماد الفلسفة ، يرجع إليها فى كلّ ما يقرأ من صفحات الكتب ، وهى الحَكَمُ فى صحة ما يُصح ، و بطلان ما يُبْطل ، ثم شخصية قوية تجزم فى الحكم ولا تتردد تردد الشيخ حسن الطويل ، ثم ربْط جزئيات الحياة العلمية والعملية كلها برباط واحد يفتح النوافذ بعضَها على بعض حتى تتألف منها وحدة ؛ فالتصوف ، والفلسفة ، والدنيا العامة ، ودنيا الشخص ، هذه كلها لا يصح أن يكون كل منها حجرة مغلقة على نفسها ، بل لا بد أن تتقابل وتتناغم ، وتؤلف دوراً موسيقيًّا واحداً ، فإذا تم هذا صح نظر الإنسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية ، وَبت[1] فيما ينفع وما يضر ، وما يعمل وما يَدَع ، ووضحت أمامه الأعلام ، واستنارت السبل ؛ أما جملة تصح وجملة لا تصح ، ومؤلف أخطأ ومؤلف أصاب ، ومنطق فى الكتاب ولا منطق فى العمل ، ونظرية فى التصوف تنقضها نظرية فى الحكمة ، وأقوال فى الزهد يسلّم بها فى حينها ، وأقوال فى الحثّ على الانغماس فى الحياة يسلّم بها فى حينها أيضاً ، فهذه كلها نظرة البُدائيين الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلا إلى السطح دون الأعماق ، والأعراض دون الجوهر ، والأشكال دون الحقيقة .

وفوق هذا كله كان يأخذ بيد تلاميذه فيرفعهم إلى مستوى يسيطرون فيه على الكِتَاب ، ولا يستعبدهم الكتاب ، ويسمُون عن قيود الألفاظ والجمل إلى معرفة الحقيقة فى ذاتها ، ولو خالفت الألفاظ والجمل .

وكانت طريقته فى التدريس عكس طريقة الشيخ محمد عبده . كان جمال الدين يحدِّد موضوع الدرس فقط من الكتاب ، ثم يُفيض فى شرح الموضوع من عنده حتى يحيط به من جميع أطرافه ، و بعد ذلك يقرأ نصّ الكتاب فإذا هو واضح ظاهر بيِّنٌ فيه موضعُ الخطأ والصواب . أما الشيخ محمد عبده ، فكان

(١) بت : أمضى الحكم .

يقرأ النص أولا ويتفهمه ويفهّمه ، ثم يفيض فى التعليق عليه وفى بسط الموضوع من عنده .

هذه هى مدرسته النظامية فى بيته .

— ٢ —

أما مدرسته الثانية غير النظامية فكانت أكبر أثراً وأعمّ نفعاً ، وهى التى كان يتلقى عليه فيها زُوّاره فى بيته ، وعظماء الرجال عند زيارته لهم فى بيوتهم ، وخاصةَ المفكرين والمثقفين عند تحلُّقهم حوله فى « قهوة البوسطة » ، وجمهور الناس عند اجتماعهم به فى المناسبات .

فى هذه المدرسة تلقى دروسَه أمثالُ : محمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى ، وأخيه إبرهيم المويلحى ، ومن الشباب أمثال : محمد عبده ، وإبرهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحق ، وغيرهم .

وفى هذه المدرسة حوّل « السيد » مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال . كان الأدب عبد الأرستقراطية ، لاهمّ له إلا مدح الملوك والأمراء ، والتغنّى بأفعالهم وصفاتهم مهما بلغ من ظلمهم ؛ فكل حاكم سيد الوجود فى زمانه ، آت بالمعجزات فى أعماله ، معصوم من الخطأ فيما يأتى به ؛ يبتزّ [1] مال الناس غصباً ، فلا يُلام على ما غَصب ، ولكن يُمدح على ما أنفق ؛ ويقتل من شاء فلا يُسأل عَمَّنْ قتل ولكن يُشاد بفضله إذا عفا . الفن والأدب والشعر والنثر موسيقى لطَرَبِه ، وبهلوان لتسليته ، وعبيد مُسَخَّرة لنهش أعدائه ، ومدح أوليائه . الأديب الصغير مَدّاح للغنىّ الصغير ، والأديب الكبير مدّاح للأمير الكبير — فأتى جمال الدين فسخّر الأدب فى خدمة الشعب ؛ يطالب بحقوقه ، ويدفع الظلمَ عنه ، ويهاجم من اعتدى عليه كائناً من كان ؛ يبيّن للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ؛ ويبصّرهم بمن كان

(١) يبتز : يسلب .

سبب فقرهم، ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات إلى النور، وألا يخشوا بأس الحاكم، فليست قوته إلا بهم، ولا غناه إلا منهم، وأن يلحّوا فى طلب حقوقهم المغصوبة، وسعادتهم المسلوبة. فخرج على الناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم، وينشد الحرية، ويخلع العبودية، ويفيض فى حقوق الناس وواجبات الحاكم، ويجعل من الأديب مشرفاً على الأمراء، لا سائلا يمد يده للأغنياء. وهذه نغمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد.

قال الشيخ محمد عبده فى وصف حال مصر قبل مجىء (جمال الدين): «إن أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم، يتصرف فيها حسب إرادته؛ ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله، أو خيانته وظلمه؛ ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته؛ ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرّفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم. وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية — ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد على باشا الكبير إلى ذلك التاريخ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد على باشا الكبير وإبرهيم باشا، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار، ولا فوائد تلك المعارف. ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣، وكان من حقه أن يعلّم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم، وأن لهم رأياً يُرجَع إليه فيها، لم يحسّ أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية، لأن مُبدع المجلس قيّده فى النظام وفى العمل، ولو حدّث إنساناً فكرُه السليم بأن هناك

وجهةَ خيرٍ غير التى يوجهها إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال » .

كان الأدب ظلا لهذا الموقف ، وصورة صادقة لهذا المنظر ؛ فأدباء مصر أمثال السيد على أبى النصر ، والشيخ على الليثى ، وعبد الله باشا فكرى ، تتصفح آثارهم ، فماذا ترى ؟ غزلاً فى حبيب ، أو رسالة إلى صديق ، أو مدحاً لأمير ، أو استعطافاً له ، أو اعتذاراً إليه ، أو وصف سفينة ، أو شكراً على هدية . أما مصر وحالة شعبها ، و بؤس قومها ، وظلم حكامها ، وحقوق الناس ، وواجبات الحكومة ، فلا تعثُر منها على شىء .

فلما جاء جمال الدين قلب هذا الوضع ، وفتح للناس منافذ للقول ، وسلك فى ذلك مسالك مختلفة :

١ — كوّن جماعة من الكهول والشبان حبَّب إليهم الكتابة ورسم لهم خُطتها ، وأوحى إليهم بالمعانى الجديدة التى يكتبونها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد يكتب فيها و يستكتب منهم من تَوَسَّم فيه المقدرة . مثال ذلك أنه شجع « أديب إسحٰق » — بعد أن اتصل به اتصالا وثيقاً وتَلْمَذَ له طويلا — على أن ينشىء جريدة اسمها « مصر » ، وكان جمال الدين يرسُم له خطة السير فيها ، ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار هو « مظهر بن وضاح » ، ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية ، وأنشأ بها صحيفة يومية اسمها « التجارة » ، وكان جمال الدين يستكتب لهاتين الصحيفتين الشيخ محمد عبده ، و إبرهيم اللقانى ، وأمثالهما ؛ هذا إلى ما يكتبه جمال الدين بنفسه . وكان مما كتبه مقالان أحدهما فى الحكومات الشرقية وأنواعها ، والثانى سماه « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » كان لهما صدى بعيد . ولقيت الصحيفتان رواجاً كبيراً ، ولفتت إليهما الأنظار بروحهما الجديد ، ثم أغلقهما (رياض باشا) .

وكذلك فعل فى توجيه الكتّاب إلى الكتابة فى الوقائع المصرية وأمثالها ، فربّى بذلك طائفة من الكتاب تُحسن الكتابة ، وتحسن اختيار الموضوعات التى تمس حياة الأمة فى صميمها . فيكتب (أديب إسحٰق) — مثلا — تحت عنوان : « أوروبا والشرق » ؛ « قُضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويَذِلّ بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب من كل جانب ... » الخ .

ويقول الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم — وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ؛ ولا يردّه عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نصحُ الأمة له بالقول والفعل » .

ويتصل به الكاتب الإسرائيلى الفكه « يعقوب صَنوع » فينشىء مجلة هزلية اسمها « أبو نضارة » ينتقد فيها سياسة إسماعيل باشا .

كل هذا كان النواة الأولى فى الشرق للصحافة الشرقية والكتّاب الذين يعالجون شؤون الوطن وحالة الشعوب .

وفى الحق إن الظروف التى أحاطت بجمال الدين كانت مساعدة على ذلك ؛ فالحال فى مصر هى كما وصفنا من قبل ، والنفوس جزعة من المراقبة الثنائية ونحوها ؛ وإسماعيل نفسه يشجع نقد التدخل الأجنبى وإن لم يشجع نقد شخصيته، فكان يسره مقالات أمثال «الوقائع المصرية » و «مصر» و «التجارة» ولا يسره أمثال « أبو نضارة» ؛ فكان الأمر أن البلاد أصبحت مستودع (بنزين) وجمال الدين (عُود ثِقاب) ، فلما أشعله اشتعلت البلاد ؛ ولولا هذه الظروف لخابت دعوته فى مصر كما خابت فى فارس والآستانة .

٢ — ومسلك آخر سلكه جمال الدين فى مدرسته الشعبية ، وهو أحاديثه التى كان ينثرها هنا وهناك فى المَقْهَى ، وفى المحافل ، وفى بيوت الزيارة . وكان

رحمه الله قليل الاحتفال بالأكل ، قليل النوم ، كثير السهر قوى الشهوة للكلام تواتيه المعانى ويطاوعه اللسان ، فكان يجد مادة للكلام فى كل شىء : فى «السجارة» يشعلها ، وفى أى منظر يراه ، وفى الطفل يسأله فيجيب أو لا يجيب ، وفى حادثة زواج أو حادثة طلاق . وهكذا يستطيع أن يخلق أمتع الحديث من الشىء العظيم والشىء التافه ومن لا شىء . وكانت مصر — بحمد الله — تملأى بالأحداث فى هذا الزمان ، فكانت تغنيه أحداثها العظام عن خلق الأحاديث المرتجلة ، وكان له القدرة على أن يُلهب مستمعه ، فلا يزال يروّح على الفحم حتى يلهبه ، فإذا جليسه يرى بعد الجلسة راحته فى السير لا فى الركوب ، وفى العمل لا فى السكون ، كأنه يريد أن يُجاوبَ جسمُه قلبه ، ويُناغم [1] عملُه نفسَه .

وكان له مذهب فى الكلام يتفق وشهوتَه ؛ وهو أن يحدث من يفهم ومن لا يفهم ، ومن يستعدّ ومن لا يستعدّ ، كالسحاب ينزل الغيث فتنتفع به الأرض الصالحة وتسوء به الأرض الفاسدة ، ولا عيبَ على السحاب . يقول الشيخ محمد عبده فى هذا : « كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها ، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد ، وإن لم يكن من أهله ، وكنت أحسُده على ذلك ، لأننى تؤثر فىّ حالة المجلس والوقت ، فلا تتوجّه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلا قابلا واستعداداً ظاهراً » .

وهذا هو السر فى وجود مدرسة فى مصر عجيبة تحسن السمر والحديث ، وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد ، وتأخذ على السامع لُبّه ، من أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، والهلباوى ، ولطفى السيد ، وكلهم من تلاميذه فى هذا الباب .

قال سليم بك العنحورى : « كان من دَيْدَن [2] « جمال الدين » أن يقطع

---

(١) يناغمه : أى يساوقه فى نغمته .

(٢) الديدن : العادة .

بياض نهاره فى داره حتى إذا جَنَّ الظلام خرج متوكئاً على عصاه إلى مُقْهَى قربَ الأزبكية ، وجلس فى صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ، ينتظم فى سِمْطها [١] اللغوىّ والشاعر والمنطقىّ والطبيب والكيماوى والتاريخى والجغرافى والمهندس والطبيعى ، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه ، و بسط أعْوَصِ الأحاجى [٢] لديه ، فيحل عُقَد إشكالها فردا فردا ، و يفتح أغلاق [٣] طلاسمها ورموزها واحداً واحداً ، بلسان عربى مبين لا يتلعثم ولا يتردد بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكَلالَ ، فَيُدهِشُ السامعين ، ويُفحِم السائلين ، ويُبْكم المعترضين ، ولا يبرح هذا شأنَه حتى يشتعل رأس الليل شيباً . . . فيقفل إلى داره بعد أن ينقُد صاحبَ المُقْهَى كل ما يترتب له فى ذمة الداخلين فى عِداد ذلك الجمع الأنيق » .

ويقول فى موضع آخر : « إنه فى خلال سنة ١٨٧٨ ، زاد مركزه خطراً لأنه تدخل فى السياسة ، وأخذ يقرّب منه العوامّ ، ويقول لهم فى أثناء كلامه ما معناه : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، ورُبِيتم فى حِجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عِبء نِيرِ [٤] الفاتحين ، وتَعْنُون [٥] لوطأة الغزاة الظالمين . تَسومُكم حكوماتكم الحَيفَ والجَور ، وتُنزل بكم الخَسْفَ والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قِوامَ حياتكم — التى تجمعت بما يتحلّب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كُرَيّات حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النَّخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . . . تناوَبَتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد

(١) السمط : العقد . (٢) الأحاجى : الألغاز . (٣) الأغلاق : الأقفال .
(٤) النير : خشبة توضع على عنق الثورين يقرنان بها ويساقان .
(٥) تعنون : تخضعون .

والمماليك إلخ ؛ وكلهم يشق جلودكم بمبضع نَهَمِه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حسّ لكم ولا صوت

انظروا أهرام مصر ، وهيا كل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمَنَعَة آبائكم ، وعزة أجدادكم .

هُبّوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء ! ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية » .

بهذا انقلب « الشيخ » من معلم فى حجرة إلى معلم أمة : يخاطب العامة والخاصة ، ورجل الشارع والمتربع فى دَسْت الوزارة .

ومن تمام بَرْنَامَجِه فى هذا الباب أن انضم إلى المحفل الماسونى الإسكتلندى لأنه يضم كثيراً من عِلية القوم ، لعله بذلك يتمكن من إيصال أفكاره إليهم ، ويضم طائفة من المصريين والأجانب ، فلعل حرية القول فيه تكون أتمّ ؛ ولكن ما دخَلَ « السيد » فيه حتى ثارت ثائرته ، وأخذ يهاجمه فى تصرفه وينقده بخطبه المتوالية . غاظه من المحفل أنه وجد أعضاءه لا يحبون أن يتكلموا فى السياسة فقال: « أول ما شوقنى للعمل فى « بناية الأحرار » عنوان كبير خطير : حرية — مساواة — إخاء ، وأن غرضها « منفعة الإنسان — سعى وراء دكّ صروح الظلم — تشييد معالم العدل المطلق » ، ولكن كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتى المحافل الماسونية !

إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كلّ بَنّاء حر ؛ وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ؛ وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتوّ والجور ؛ فلا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة » .

وهكذا نقدها فى عدم تدخلها فى السياسة ، وتنازع أعضائها على الرياسة ، ورغبتهم فى إغماض أعينهم على ما يقع على الأمة من ظلم .

وأخيراً استقال من هذا المحفل ، وأنشأ محفلا آخر تابعاً للشرق الفرنسى ؛ وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين ، وكان فى هذا المحفل مطلق الحرية ، نظّم شُعَبه للأعمال المختلفة ؛ فشعبة للحقانية ، وأخرى للعالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجهادية . وهكذا لكل وزارة ومصلحة شُعبة ، تدرس كل شعبة شؤون وزارتها أو مصلحتها ، وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الإصلاح فيها ، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها فى أسلوب حازم صريح . فكان لذلك هِزّة فى الأندية والمجتمعات[1] .

وهكذا اتسعت دائرة نفوذه وأعماله ، فقد بدأ يدرّس فى حجرة ، ثم أخذ يسيطر على عقول مستمعيه فى «قهوة» ، ثم ها هو ذا يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومة بمحفِله . وكان يدرّس فى بيته كتب الفلسفة والحكمة ، فإذا به فى مجتمعاته ومنتدياته يشرح حالة الأمة الاجتماعية ، ويبين حقوقها وواجباتها ، ثم إذا به آخر الأمر يضع يده فى صميم الحياة السياسية .

خِلْقة فيه ظهرتْ منذ كان شابًّا يلعب دوره فى نصرة أمير على أمير فى ولاية الأفغان ، لا يقنَع حتى يتزعم ، ولا يهدأ حتى يضع يده على الأزرار التى تصرّف الأمور ، ولكنها أزرار مشحونة بالكهرباء مثيرة للاضطراب ، هو لا يعبأ بها ولكنها على رغمه تنال منه .

ماذا كان يريد السيد جمال الدين فى مصر ؟

يريد فى درسه النظامى توسيع عقول الطلبة ، وتفتيح آفاق جديدة فى فهم

(١) خاطرات جمال الدين لمحمد باشا المخزومى .

العالم ، وتعليم الحرية فى البحث ، وإيجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتنقد وتحكم ؛ خالفت النص أو وافقته ، خالفت للمعروف المألوف أو وافقته .

ويريد فى درسه العام أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام ، ويفهموا موقفهم من الحاكم ، وموقف الحاكم منهم : كل يعرف حدوده ويؤدى واجبه ، فإذا تعدى الحاكم هذه الحدود قال له الشعب : « لا » بملء فيه — يريد تكوين رأى عامّ واسع الثقافة قوىّ حازم ، يفهم الأمور الداخلية والخارجية ، ويكوّن لكل ما يعرض من الحوادث العظام رأياً يقنعه ثم يفرضه على أولى الأمر حتى لا يتلاعبوا به ، يفهم أن من حقه أن يعيش عيشة صالحة ينعَم بدخله وله غَلّة جهده ، فإذا أخذت الحكومة منه الضرائب فعلى قدر ما تستدعيه المصالح العامة لا الشهوات الشخصية، ولذلك كان من حقه الإشراف على وجوه الدخل والخَرْج .

ويريد فى السياسة أن يقتنع الشعب بحقّه فى الحكم ؛ فإذا فهم ذلك — وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه — طالب بالمجلس النيابى ، فيُعْطَاهُ بناء على فهمه وطلبه وقدرته لا على أنه منحة تمنح له ، فإذا أُعطيَه بجهده كان أجدر بالمحافظة عليه ، وحَرَص عليه حِرْصه على دمه ، فاستقر وثبت ، ولم تستطع سلطة ما أن تلغيه أو تهمله.

استدعاه الخديو توفيق باشا إلى قصر عابدين وقال له : « إنى أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ؛ ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن يُلقَى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تَهلُكة » .

فأجاب جمال الدين : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص . إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى إشراك

الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسنّ القوانين وتنفذها باسمكم و إرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » [1] ثم خرج من عنده يخطب فى هذا الموضوع ، ويستحث تلاميذه وأعوانه على الكتابة فيه فى حماسة وقوة .

لقد رأيناه أول عهده فى مصر يرى أن مجلس النواب لا قيمة له ما دام المصريون على ما هم عليه من قلة التنبه ، وضعف اليقظة ، وقلة الشجاعة ، ثم رأيناه آخر عهده يلح فى طلب الحكم النيابى ويحرّض عليه . فلعله رأى من الأحداث واستبداد الحكام ، ونضج الأمة فى السنين الثمانى ما غير رأيه وعدّل خطته .

لقد كان الأمير توفيق فى آخر أيام إسماعيل باشا يقدره ويدين بمبادئه ، وكان السيد يلتقى به فى المحفل الماسونى ، ويتوسّم فيه الخير إذا ولى بعد إسماعيل ، ولكن الخديو توفيق لما تولى الحكم سعى إليه الساعون ، ودس له الدساسون ، فاجتمع مجلس الوزراء وقرر نفى السيد جمال الدين « لأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » ، فمثلت لنا من جديد رواية سقراط ، وقبض عليه وعلى خادمه الأمين الفيلسوف أبى تراب فى ٦ رمضان سنة ١٢٩٦ ، ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧١ ، وأودعا باخرة سارت بهما إلى بمباى . وكان هذا آخر العهد بالأستاذ فى مصر ، وإن لم يكن آخر عهدها بآرائه ومبادئه .

١٨٧٧

— ٣ —

أقام السيد فى حيدر اباد فى الهند منفيا لا يُسمح له بمفارقتها ، ولا يستطيع أن يشترك فى عمل إلا حديثاً مع زائر ، أو قراءة فى كتاب ، أو رداً على سؤال .

وفى هذه المدة ألف كتابه المشهور فى « الرد على الدهريين » وعنوانه « رسالة

(١) خاطرات جمال الدين .

فى إبطال مذهب الدهريين ، و بيان مفاسدهم ، و إثبات أن الدين أساس المدنية والكفر فساد العمران » . وقد كتبها بالفارسية ثم ترجمت إلى الأردية ، ثم ترجمها الشيخ محمد عبده بمعاونة عارف بالفارسية وهو تابع السيد جمال الدين ، عارف أبو تراب .

ردّ فى هذه الرسالة على « داروين » ومذهبه فى النشوء والارتقاء ، وعلى أمثاله ممن ذهبوا مذهبه .

وقد يعجب القارئ من تعرضه لمثل هذا البحث ، وهو يتطلب — كما فعل « داروين » — تخصصا فى العلوم الطبيعية من جيولوجيا وفسيولوجيا و بيولوجيا وأمبريولوجيا (علم تكوين الأجنّة) وغير ذلك .

ولكن عذر السيد أن مذهب « داروين » قد أثار موجة من الإلحاد قوية — و إن لم يكن داروين نفسه ملحداً — وطغا فى عصره مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادة ، ولا شىء وراءها ، وكل شىء فى الحياة مظهر من مظاهرها حتى الفكر والعاطفة ؛ والمادة لا تتجدد ولا تفنى ، وقوانينها أبدية لا تتغير ، وهى قديمة أزلية أبدية ، وليس فى هذا العالم شىء يعتريه الفناء ، و إنما تتغير الأشكال ؛ و بناء على ذلك فلا نفس ، ولا روح ، ولا دين ، ولا إله .

وهذا المذهب قديم تراه فى البوذية ، وعند قدماء المصريين وعند بعض فلاسفة اليونان ، وظهر فى العصور الحديثة فى الثورة الفرنسية ؛ ودعا إليه كثير من الفلاسفة فى إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ؛ وعرفه العرب قديماً وسموا أصحابه « الدهريين » وحكى مذهبهم الجاحظ والشهرستانى وغيرهما من مؤرخى المذاهب .

وبانتقال الآراء الغربية إلى الشرق انتقل مذهب النشوء والارتقاء ،

ومذهب المـاديين ؛ فترجم فى مصر « شـبلى شميل » مذهب بخنر سنة ١٨٨٤ ، وأثار حركة كبيرة حوله . وفى الهند ظهرت طائفة تعتنق هذا المذهب وتسمى طائفة « النيتشرية » نسـبة إلى نيتشر Nature (وهى كلمة إنجليزية معناها الطبيعة) وترددت هذه الكلمة وقرعت أسماع الكثيرين ، كما قرعت سمع جمال الدين أيام إقامته فى حيـدراباد ، وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر اباد فى كتاب يقول فيه : « يقرع سمعنا فى هذه الأيام صوت « نيتشر » ، ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية ، ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب « نيتشرى » فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم ، وفى أى وقت ظهروا ؟ » . فكان من ذلك تأليف هذه الرسالة .

ولكن ليس أقوم ما فيها الرد على داروين ، وإنما أقوم ما فيها إثبات قيمة الدين ، وضرورته للإنسان ، وأثره فى رقيه ، وأثر الإلحاد فى انحطاطه . وهذا هو ما يبلغ فيه جمال الدين الذروة .

وخلاصة رأيه فى هذا الموضوع أن الدين — على العموم — أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم . وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى التصـديق بأن الإنسان ملَك أرضىّ وأنه أشرف المخلوقات ؛ والعقيدة الثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل ؛ والثالثة جزمه بأن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضـيقة الساحات ، كثيرة المكروهات ، جديرة بأن تسمى « بيت الأحزان » إلى دار فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات ، لاتنقضى سعادتها ، ولا تنتهى مدتها .

أما الخصال الثلاث فهى : الحياء والأمانة والصدق .

ويشرح أن هذه الأسس التى أتت بهـا الأديان هى علة العمران، وعليهـا تتوقف سعادة الإنسان ، وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدى تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس فتنزل الإنسان منزلة الحيوان ، وتفقده الباعث على الخير ، وتُعده لحياة جامدة ضيقة جافة لا قلب لها ، ولا سمو فيها ، وفى هذا انتكاس [1] لخلقه ، وهدم لكيانه ، وحرمان مما أعده الله له .

وفى الإسلام مزايا على سائر الأديان « أولها : صَقْل العقول بصِقال التوحيد ، وتطهُّرها من لَوْث [2] الأوهام . فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان متوحد فى خلق الأفعال ، وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد — عُلويًا كان أو سُفْليًا — يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضرّ ، أو إعطاء أو منع ، أو إعزاز أو إذلال . . . ؛ أو نحو ذلك من خرافات كل واحدة منها كافية فى إعماء العقول وطَمْس أنوارها .

وثانيها : أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها ، وأثبت لكل نفس الحق فى السمو . . . ومحق امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف ؛ وقوّم الناس بالكمال العقلى والنفسى ؛ فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأىّ شىء آخر . وقد لا نجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة .

وثالثها : أن الإسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون . . . فهو كلما خاطب ، خاطب العقل ، وكلما احتكم ، احتكم إلى العقل ؛ تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة .

ورابعها : أن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم ،

---

(١) انتكاس : انقلاب .

(٢) اللوث : الشوب والتلويث .

وفرض نصْب المعلم ليؤدى عمل التعليم ، و إقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر فقال : « ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر » وقال : « فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيَ الإسلام ، وكل ركن منها له الأثر البالغ فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام ، وتدعيم السعادة الإنسانية ؛ وقد دارت حالة المسلمين رقيًّا وانحطاطاً على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها .

هذا ما عمله « جمال الدين » فى حيدر اباد .

فلما حدثت فى مصر « الثورة العرابية » نقلته حكومة الهند من حيدر اباد إلى كلكتا ، وألزمته الإقامة فيها مخفوراً مراقباً حتى انتهت الثورة بدخول إنجلترا مصر ، فأبيح له الذهاب حيث شاء (فى غير الشرق) ، فيذكر مستر « بلنت » Blunt أنه ذهب إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية ، وأقام بها أشهراً ولم ينفذ ما اعتزمه — ولم يذكر ذلك غير بلنت من مترجميه[1] .

ثم رأيناه فى لندن سنة ١٨٨٣ ولم يطل الإقامة بها ، ثم سافر منها إلى باريس ، وكان قد كتب إلى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ، ليوافيه بها من منفاه فى بيروت ، ففعل .

ما برنامجه ؟ ماذا ينوى من العمل بعد ما جرب ، و بعد ما نال من الأحداث ونالت منه ؟

(١) وأنا أستبعد رواية مستر « بلنت » لأن السيد لما خرج من الهند سافر بحراً عن طريق البحر الأحمر ، فلما كان فى بور سعيد كتب إلى الشيخ محمد عبده كتاباً لا تزال محفوظة صوره الفوتوغرافية يقول فيه : « أنا الآن فى « برط السعيد » أذهب إلى لندرة . ... لأن أخبار العالم كانت قد انقطعت عنى مدة سبعة أشهر ، ولذا لا أدرى مستقر العارف (وهو تابعه) أخبره بسفرى » .

ها هو ذا والشيخ محمد عبده يتشاوران فيما يصنعانه من الإصلاح .

فأما الشيخ محمد عبده فكاد يدب إليه اليأس من الجيل الحاضر ، بعد أن خبر الناس فى حوادث عرابى وغدرهم ، وقلة وفائهم ، وتكالبهم على مصالحهم الشخصية ، فأشار على السيد جمال الدين أن يذهبا إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرهما ، ثم ينشئان فيه مدرسة للزعماء يختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية ، ومن يتوسمان فيهم الخير ، ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه ، ويُعدانهم للزعامة والإصلاح ، قال : « فلا تمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم ، والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار » .

لم يعجب « السيد » هذا الرأى ، ورأى فيه خوراً فى العزيمة ، وجنوحاً إلى السلامة ، ومبالغة فى التشاؤم من الحاضر ، وقال الشيخ محمد عبده : « إنما أنت مُثَبِّط »[1] ووضع « السيد » خطته ، وهى إنشاء جريدة عربية فى باريس ، تُنشر منها فى العالم الإسلامى ، تفهمه حقوقه وواجباته وتشعل وطنيته ؛ فكان ذلك . وكان من هذا جريدة « العروة الوثقى » يكون « للسيد » فيها الأفكار والمعانى ، وللشيخ محمد عبده التحرير والصياغة ، وميرزا محمد باقر يعرب لهما عن الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقى ، وكان وراء هذه المجلة جمعية سرية منبثة فى جميع الأقطار الإسلامية ، اختير أعضاؤها من بين المسلمين المثقفين المتحمسين لدينهم . ووضع لها يمين يقسمها من يدخل فيها ويتعهد « بأن يبذل ما فى وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية ، وإنزالها منزل البنوة والأبوة الصحيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ، وألا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسعى قدماً

(١) ولعل هذه الفكرة هى التى أوحت للسيد محمد رشيد فيما بعد بإنشاء مدرسة الدعوة والإرشاد فى مصر .

واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئيًّا كان أو كليًّا ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلا وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع » الخ . وأنشئت للجمعية فروع فى البلدان المختلفة ، وكل فرع يجتمع المذاكرة ، وفى آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشىء من المال فى صندوق صغير له ثقب ضيق يضع فيه كلٌّ ما تيسر خُفيةً ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر — ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها ، فقد كانت ترسل أكثر أعدادها بالمجان .

أصدرا من الجريدة ثمانية عشر عدداً فى ثمانية أشهر ، ظهر العدد الأول منها فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ = ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ، وظهر العدد الأخير فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ = ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

ماذا كان الغرض من هذه الجريدة ؟

لخصت الجريدة أهم أغراضها أولَ عدد من أعدادها فيما يأتى :

(١) بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .

ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشىء العلل التى أفسدت حالهم ، وَعمّتْ عليهم طريقهم . وإزاحة الغطاء عن الأوهام التى حلت بهم .

(٢) إشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .

(٣) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التى كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

(٤) الدفاع عما يُرْمَى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدّمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

(٥) إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

(٦) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التى لا تميل إلى الحَيْف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا . وإذ كان الإسلام تمتزج فيه العقائد بالنظم الاجتماعية وبالنظم السياسية كانت دعوته شاملة لهذه المناحى الثلاثة .

كان المثل الأعلى له حالة المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين ، من حيث العقيدةُ والصفات الخلقية والنظام السياسى .

فيرى أنهم كانوا موحدين حقًّا ، معتزين بدينهم ، لا تفرقهم المذاهب والنِّحَل ، مترابطين برباط الأخوّة ، فيهم خلق الإباء والشمم ، يبذلون أعز شىء فى سبيل عقيدتهم وعزتهم ، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى غير هوادة .

ثم دخل الفساد على توالى الزمن من خمسة أبواب : من عقيدة الجَبْر والخطأ فى فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجدّ فى الأعمال ؛ ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام فى القرنين الثالث والرابع ، فجعلوا المسلمين شِيَعًا وأحزابًا ، وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة ؛ ومما أحدثه السوفسطائية من أفكار ، وعدّهم الحقائق خيالات تبدو للنظر ، ومما عمله كَذَبَة المحدّثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله وفيها السم القاتل لروح العمل والإباء ، وفيها ما يستوجب ضعفًا فى الهمم ، وفتورًا فى العزائم ؛ ومن ضعف التربية والتقصير فى إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ، ونشر العلم بينهم ، وزاد فى بعض المقالات أسبابًا أخرى أهمها تفكك الروابط بين أجزاء الأمة ، فلا ترابط

بين العلماء بعضهم و بعض ، ولا بين العلماء والأمراء ، ومنها أن الدين الإسلامى جعل أمته أمة مجاهدة قوية محاربة ، يأمرها الله بقوله : « وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة » فلما استهانت بهذا الأمر ، ولم تُعِدَّ لكل موقف عدته ، ذلت بعد عزة وضعفت بعد قوة .

وكان يختار بعض هـذه الأسباب ويُوسعها تفصيلا ، أو يفردها فى مقال ، كما فعل فى مقال القضاء والقدر . وكان من عادته أن يلهب النفوس بأسواط التقريع ثم يدخل الأمل عليها بأن هذه عوارض يمكن أن تزول ما سلم الأصل ، مذكِّراً دائماً بحالة المسلمين فى العهد الأول ، وعزتهم الأولى .

وكان مثله الأعلى كذلك حكومة إسلامية واحدة تأتمُّ بالإسلام وتعاليمه ، ولما رأى أن ليس فى الإمكان خضوعها لأمير واحد اكتفى بالدعوة إلى أن ترتبط أجزاؤها بروابط محكمة ، ويكون لها مقصد واحد ، وتحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن ، وأساسها العدل والشورى ، واختيار خير الناس لتولى الأمور . يقول فى ذلك بعد أن دعا إلى اتفاق الأمم الإسلامية : « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما يكون عسيراً ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهـة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على إملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع ، فإن حياته بحياتهم و بقاءه ببقائهم » .

وكثيراً ما كان يضرب المثل بالإمارات الجرمانية فى توحدها بعـد تشتتها ، ويدعو إلى حِلْفٍ بين الدول الإسلامية يتزعمه أكبرها وأقواها .

وخَشِيَ أن هذا النظام الذى يدعو إليه يثير الشقاق بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى فى الأقطار الإسلامية ، فقال : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه — بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم — « تقصـد الشقاق بينهم و بين من يجاورهم فى أوطانهم ، ويتفق معهم فى مصالح

بلادهم ، ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة ؛ فليس هذا من شأننا ، ولا مما ندعو إليه ، ولا مما يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا الخ » .

وقاده هذا التفكير فى نوع الحكومة التى يأملها ، والأخلاق التى يرجوها من العزة والشمم والقوة ، أن يناهض — فى الجريدة — الاحتلال الأجنبى فى الأقطار الإسلامية — وخاصة فى مصر — بكل قوته ، ويؤلّب عليه فى غير هوادة . وقد شغل هذا أكبر جزء من الجريدة ، من كتابة مقالات ورواية أخبار وتعليق عليها ، واستعمل لهذا الغرض أشد أنواع التعبير ، وأعنف أساليب التهييج ، واستغل حوادث المهدى فى السودان لإثارة الشعور وإهاجة النفوس .

واستعمل إلى جانب الجريدة رُسُلا متخفّين يذهبون إلى الأقطار المختلفة مزودين بالتعاليم التى لا يستطيع نشرها فى الجريدة ، فرسول إلى موسكو ، ورسول إلى الحجاز ، حتى أرسل الشيخ محمد عبده مرة — وهو محكوم عليه بالنفى — إلى مصر وتونُس .

كان من نتيجة ذلك أن أحس من بيده السيادة على الحكومات الهندية والمصرية الخطر من الجريدة ، فأمر بمنعها من الدخول ، وأصدرت وزارة نوبار باشا قراراً بالتشدد فى منعها .

فلما أحست الجريدة شدة المراقبة ، واستحالة وصول الأعداد إلى أصحابها إلا فى القليل النادر ، وفى كثير من التحايل ، احتجبت .

احتجبت والأسى يَحُزّ فى نفس القائمين عليها ؛ فلا مَن دعوهم لبّوا الدعوة فثاروا يطلبون أن يكون أمرهم بيدهم ، ولا الجريدة استطاعت أن تستمر فى دعوتها حتى تؤدىَ رسالتها .

وبهذا انتهت مرحلة أخرى من حياة « السيد » مدتها ثلاثُ سنين قضاها

فى باريس ، كلها عناء ، وكلها جهاد ، انتهت بما أحزنه وخيب أمله ، وإن كانت المعانى لا تنعدم كما أن المادة لا تنعدم .

— ٤ —

حادثان هامّان حدثا فى السنين الثلاث التى كان فيها « السيد » فى باريس ، أحدهما اتصاله بالفيلسوف الشهير « رينان » وإعجاب كل منهما بالآخر ، ودخولهما معاً فى معركة — وإن لم تكن حامية — حول الإسلام والعرب ؛ وقد فتحت صدرها لهذه المعركة جريدة « الديبا » الفرنسية الشهيرة .

فقد ألقى الأستاذ « رينان » فى السربون محاضرة دارت حول نقط ثلاث :

(١) خطأ المؤرخين فى قولهم : علوم العرب ، وفنون العرب ، وتمدن العرب ، وفلسفة العرب ، مع أن هذه الأشياء نِتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية ، فالتمدن أكثره من نتاج الفرس ، والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين والوثنيين الحرّانيين . والفلاسفة الذين ظهروا فى دولة الإسلام كالكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندى ، فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ ، وعدم دقة فى التعبير .

(٢) أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر . ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان فى حماية خليفة أو أمير مؤمن فى الظاهر غير متدين فى الباطن ، ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء فى الفلسفة ليس له قيمة كبيرة ، فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوّهة ، والفلسفة التى أخذها الأوربيون عن المسلمين فى أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة ، مشوهة الأصل ، لم تستفد منها أوربة الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة

من منابعها الأصلية . ومع هذا يقول « رينان » : « إن فى دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيعة المقام ، وما دخلت فى حياتى مسجداً من مساجد المسلمين إلا شعرت بجاذبية نحو الإسلام ، بل تأسفت ألا أكون مسلماً . . . » ولكن الإسلام حجب العقل عن التأمل فى حقائق الأشياء . . . وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه . (٣) أن العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ؛ فالزمن الذى كان يسود فيه العنصر العربى — وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر البحث العلمى ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق ، مهد التمدن الفارسى القديم .

وختم محاضرته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه ، « فالعلم روح كل هيئة اجتماعية ، وبه تتقدم الأمم ، وبه يتحقق العدل ، وبه يستخدم العقل القوة . . . وهو لا يساعد إلا على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحريته » .

نشرت هذه المحاضرة فى جريدة « الديبـــا » فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والباحثين فى شؤون المسلمين .

فكان ممن رد عليه الأستاذ « مسمر » رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك ، وفى رده كاد يسلم بالمسألة الأولى ، وهى أن المدنية العربية ليست مدنية العرب وحدهم بل مدنية الأمم المختلفة التى دخلت فى الإسلام ، وفى المسألة الثانية قال إنه ليس فى دين الإسلام وتعاليمه ما يمنع المسلمين من التقدم العلمى ، وقد تقدم المسلمون فى عصور مختلفة ولم يمنعهم دينهم من أن يتفوقوا على المسيحيين فى بعض تاريخهم ، وكل سائح الآن يَسِيح فى البلاد الإسلامية يشعر بنهضة الشرق وأخذه بأساليب

التقدم والإصلاح ، من غير أن يصدهم دينهم عن ذلك . ثم قال : « ومن الغريب أنه قبل أن يلقى المسيو رينان خطبته بيومين ألقى بعض العلماء العظام أمام المحفل نفسه محاضرة اشتملت على مكتشفات العرب فى علم الحياة — وقد نشرت هذه المحاضرة فى المجلة العلمية — . . . وهى محاضرة ترشدنا إلى حقيقة التمدن الإسلامى فى القرون المتوسطة ، فلو اطلع المسيو رينان عليها وعلى ما كتبه « سديو » و « دوزى » — فى مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب ، وعرف ما عملته هذه الأمة فى العلم ، مما لا يحصى عدده على حين كانت أوربة منغمسة فى التوحش والجهالة — ما نسب إلى العرب ما نسب ، وهذا العلم تقدم بمعونة الدين لا برغم الدين . فإذا كان الإسلام سمح للنساطرة والمجوس واليهود فى دولته بهذا التقدم العلمى الذى ذكره مسيو رينان فلماذا لا يكون سبباً فى حمل ملايين المسلمين الآن على الأخذ بأسباب العلم — وأما المسألة الثالثة فلم يعرها مسيو مسمر كبير اهتمام فى الرد .

وقد تحمس الشبان المسلمون فى باريس لمقال « رينان » ورد « مسمر » فاجتمعوا وكلّفوا أحدهم حسن عاصم « حسن باشا عاصم فيما بعد » تعريب المحاضرة والرد عليها فعربهما ، وقال فى أول ذلك : « لما كان الذب عن الدين فرضاً على الإنسان ، وحب الوطن من الإيمان ، اجتمع جم غفير من طلبة العلم المصريين المقيمين بفرنسا وكلفوا أخاهم العبد الفقير « حسن عاصم » بتعريب الخطبة التى ألقاها رينان . . . طعناً فى دين الإسلام والأمة العربية ، وبتعريب ما كتبه الفيلسوف الكبير صاحب الفكر الصائب المسيو مسمر . . . والغرض أن نقف على الطعن والرد كلّ من كان على دين الإسلام أو من الأمة العربية ، حتى يمكنهم تفنيد كلام المسيو رينان ، فيفعلوا إظهاراً للحق » ؛ كما عرب محمد مختار أحد طلبة العلوم الطبية بباريس المحاضرة التى أشار إليها مسيو مسمر .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان رد الأستاذ جمال الدين عليه فى « الديبا » أيضاً ، ولكن كان رده هادئاً فى بعض نقطه ، فلعله لذلك لم يعجب حسن عاصم ولا إخوانه ، ولذلك لم يهتموا بترجمته إلى العربية أو نشره ، فقد مدح رينانَ على بحثه وإنصافه وقال إنه استفاد من محاضرته استفادة كبيرة ، ثم قال : « إن المحاضرة تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن الديانة الإسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ؛ (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة .

« فأما عن النقطة الأولى ، فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها ، أصَدَر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الإسلامية فى العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التى اعتنقت الإسلام أو حُملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هى جميعاً مصدر ذلك ؟ لا ريب أن قِصَر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون جلائه هذه النقطة .

ثم أخذ يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله فى الأديان الأخرى ، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجَّلون لم يلقوا أسلحتهم بعدُ كما أعلم ، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعنى العلم والفلسفة) » .

قال : « وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ، ويُغِذّ[1] السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيُّف بالعلوم اليونانية والفارسية ... فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب ، وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم . وقد كانت رومة وبيزنطة المدينتين

(١) يغذ : يسرع .

الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها . . .
ثم جاء الوقت الذى وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، وتهدمت فيه نُصُبهم التى أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة فى طىّ النسيان ، وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة ، فأحيوا تلك العلوم المندثرة ، ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهاناً على حبهم الطبيعى للعلوم ؟ .

«صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هـذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضحوها ، ونسقوها تنسيقاً منطقيًّا ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوى على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بُعْد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم . أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعى للعلوم ؟

« وبينا يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية فى غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاماً ، وأن العالم الإسلامى إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحى فى الثقافة الذهنية إذ يقول : إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كتابهى السياسيين من أصل حَرَّانى ، أو أندلسى ، أو فارسى ، أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أغمط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ، ولا أن أغض الطرف عن

الدور الجليل الذى لعبوه فى العالم الإسلامى ، ولكن أرجو أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عرباً ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين، وكونُهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهى « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غَسّانيين اهتدوا بهدى النصرانية . أما ابن باجَه ، وابن رشد ، وابن طُفَيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربيةً من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصاً إذا اعتبرنا أن لا سبيلَ إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .

« ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذى ينتمى إليه العظيم، ولم نأبه للنفوذ الذى سيطر عليه ، والتشجيع الذى لقيه من الأمة التى عاش فيها ؟ لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمى إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو إنجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى » .

ثم تعرض لأسباب انطفاء هـــذه الشعلة ، وختم رده بقوله : « إن العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم — على ما به من جمال — لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهى التى تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة السحيقة التى لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها » .

رد عليـــه الأستاذ رينان وبادله مدحاً بمدح ، وإعجاباً بإعجاب ، وقال : « تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوقع فى نفسى منـه ما لم يقع لى إلا من القليلين ، وأثّر فىّ تأثيراً قويّا ؛ وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضراتى فى السربون . . .

والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلناها ، وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيّل إلىّ من حرية فكره ، ونبالة شِيَمِه ، وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أولئك الملحدين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

ثم قال : « ولست أرى فى البحث النفيس الذى عالجه الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة . . . فلسنا بالتأكيد ننكر ما لرومة على تاريخ الإنسانية من نفوذ ، ولا ما كان للعرب من نفوذ ، ولكن هذه التيارات الإنسانية العظيمة فى حاجة إلى تحليل ؛ إذ ليس كل ما كتب باللاتينية يزين تاج شهرة رومة ، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين ، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربى ، ولا كل ما نشأ فى بلد مسيحى من تأثير المسيحية ، ولا كل ما ظهر فى البلدان الإسلامية من ثمار الإسلام . . .

« لقد خالنى الشيخ غير منصف فى أنى لم أوفّ الكلام حقه ، ولم أقل فى المسيحية ما قلته فى الإسلام ، وأن الاِضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين ؛ وهذا قول حق ، فجاليليو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقيه ابن رشد من المسلمين . . . وإذا كنت لم أطل القول فى هذه الحقيقة فلأن آرائى فى هذا الشأن معروفة لا حاجة بى إلى تكريرها على مسمع محفِلٍ عَلم بكل أعمالى وآرائى . . . ولست أريد من المسيحى ترك عقيدته المسيحية ولا من المسلم ترك الإسلام ؛ ولكن أريد من المسيحيين والمسلمين المتنورين أن يهتموا بالعلم اهتماماً لا تعوقه العقيدة ، وقد تم هذا فى نصف البلدان المسيحية ونرجو أن يتم مثله فى الإسلام . وإن يوماً يتم ذلك فيه لما أرحّب به أنا والشيخ ونطرب له جميعاً » .

واستمر فى تأييد رأيه الذى قاله فى المحاضرة ثم ختم مقاله بقوله : « ويلوح لى أن الشيخ جمال الدين قد زوّدنى بطائفة من الآراء الهامة تعينى على نظريتى الأساسية ، وهى أن الإسلام فى النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية فى الأراضى الإسلامية ، ولكنه فى النصف الثانى خنق الحركة العلمية وهى فى حظيرته ، فكان هذا من سوء حظه » .

وهذه النتيجة الأخيرة — من غير شك — فيها كثير من التعديل لآراء رينان السابقة ، وهى تؤدى حتما إلى أن مقاومة العلم ليست من طبيعة الإسلام ، ولو كانت من طبيعته ما شجع الحركة العلمية فى أوله ولا آخره .

وإلى هنا أسدل الستار على هذه الرواية التى سيعاد تمثيلها — على وجه أشدّ — بين مسيو هانوتو والشيخ محمد عبده . وما أقوى الردود ! ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها بقبوّهم مكانة عليا فى العلم والفلسفة .

* * *

وأما الحادثة الثانية فسياسية ، ذلك أن بعض ساسة الإنجليز — وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهييجها الرأى العام على إنجلترا — رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها فبعثوا إلى السيد جمال الدين فى ذلك ، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال : « رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندرة إجابة لدعوة من يُرْجى منهم الخير لملتنا ، ومن يؤَمَّلُ فيهم حسن النية (إشارة إلى مستر بلنت) . . . » .

قابل محرر الجريدة كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وحادثهم محادثات طويلة فى المسألة المصرية ، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك فى الجرائد الإنجليزية ، واكتفى السيد جمال الدين فى العدد الرابع عشر من العروة الوثقى بذكر محادثات كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحربية الإنجليزية لورد

« هرتنكتن » خلاصتها أن وزير الحربيـة سأل الشيخ محمد عبده : ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز ، وهى خير من سلطة الأتراك ومن جاء على أثرهم ، خصوصاً وأن الجهالة عامة فى أقطار مصر ، وأن كافتهم لا يفرق بين حاكم أجنبىّ وحاكم مصرىّ ؟ !

وردّ الشيخ محمد عبده بما خلاصته أن فى المصريين من يحبون أوطانهم حب الشعب الإنجليزى لبلاده ، وأرض مصر من زمن محمد على انتشرت فيها العلوم والمعارف ، وأخذ كل منها نصيباً على قدره ، ولا تخلو قرية مصرية من قارئين وكاتبين يقرءون الجرائد العربية ويُوصِلون ما فيها إلى من لم يقرأ ، والنفرة من ولاية الأجنبى من طبيعة البشر ، فضلا عما لتعاليم الإسلام فى هذا الشأن .

وقد أخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة للتهييج وإثارة الشعور . وعلى كل حال فلم تأت هذه الأحاديث بنتيجة من التفاهم ، واستمرت الجريدة فى خطتها حتى حُجِبت كما أسلفنا .

— ٥ —

ماتت جريدة العروة الوثقى ، ولكن لم يمت أثرها ، فقد أحيت روح كثير من المتنورين فى العالم الشرقى ، وأيقظتهم من سُباتهم ، وبصّرتهم بسوء حالهم مع الاحتلال ، وعلّمتهم كيف يكتبون ويخطبون ويدعون إلى الشعور بالقومية الذى سُمى بعدُ بالاستقلال ؛ فإن قلنا إنها كانت أول شرارة فى الشرق لإلهاب الشعور بالكراهية للحكم الأجنبى لم نُبعد ، فقد كَتبَت فى الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية ، وعالجتها كلها فى حماسة وتهييج بالغَيْن ، ونظرت إلى كل ذلك فى ضوء السياسة الدولية العامة ، والتفتت

إلى الشعوب تحركها وتثير شعورها ، والحكومات المختلفة تبين لها أضرارها من احتلال الشرق ؛ وهكذا وهكذا .

لم تتأثر بالدعوة وقتذاك الشعوبُ ولا الحكومات الأجنبية ولا المحلية ، و إنما تأثرت بها طبقة قليلة من المستنيرين فى الأقطار الشرقية المختلفة تأثراً كان نواة للحركات الوطنية بعد ، ولست أزعم أنها كانت النواة الوحيدة ، ولكن كانت النواة الأولى .

على كل حال عُطلت الجريدة وانفرط عِقد القائمين بأمرها . فالشيخ محمد عبده وميرزا باقر يعودان إلى بيروت ، والسيد جمال الدين إلى فارس بناء على دعوة من الشاه ناصر الدين . تلقاه الشاه والعلماء والأمراء فى حفاوة ، ولكن سرعان ما دبت الغيرة فى نفس الشاه وأحسّ خطره فتنكّر له ، فاستأذن السيدُ فى الرحيل ورحل إلى سان بطرسبرج عاصمة روسيا ، وأقام بها نحو ثلاث سنين من سنة ١٨٨٦ — سنة ١٨٨٩ .

لماذا اتجه إلى روسيا ؟ وماذا عمل فى هذه المدة ؟

إن معلوماتنا عنه فى هذه الفترة قليلة ، وأكبر الظن أنه شغل فيها بشيئين : (١) حال المسلمين الروسيين وعددهم نحو ثلاثين مليوناً ، وكانوا يعاملون فى عهد القياصرة معاملة ظالمة جائرة ، فلعله حاول باتصاله برجال الحكم إذ ذاك أن يلطف من ظلمهم ويخفف من جورهم . وقد عرف عنه أنه سعى عند القيصر فى طبع المصحف ، و بعض الكتب الدينية لمسلمى الروس، فأذن له فى ذلك . (٢) ما كان لروسيا من أثر كبير فى سياسة الشرق ومناهضتها للسياسة الإنجليزية فى آسية ، وضغطها الشديد على الدولة العثمانية ، والعمل على إتعابها ، وتقطيع أوصالها ، ومع هذا التنافس والمخاصمة على الشرق بين إنجلترا وروسيا فإن كثيراً من السياسيين يرون أن هذه المنافسة أفادت إنجلترا وفرنسا و إيطاليا أكثر مما أفادت

روسيا . فلولا ضغط الروس على الدولة العثمانيـة ما سهل على فرنسا الاستيلاء على الجزائر وتونس ، ولا على إيطاليا الاستيلاء على طرابلس ، ولا على إنجلترا الاستيلاء على مصر .

على كل حال انغمس « السيد » أثناء إقامته فى روسيا فى السياسة الدولية وحَرَّض روسيا على سياسة إنجلترا . ونشر فى الجرائد الروسية مقالات فى السياسة الأفغانية ، والفارسية ، والعثمانية ، والروسية ؛ ونقد السياسة الإنجليزية ، وقابل القيصر فسأله عن آرائه فى الشرق ، ثم سأله عن سبب خلافه مع الشاه ، فقال : إنه الحكومة الشورية ، أدعو إليها ولا يراها . قال القيصر : الحق مع الشاه ؛ فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ قال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقّبون له الفرص . فلم يُعجب القيصر هـذا الحديث ، وقام : علامة الإذن له بالانصراف .

ثم سافر « السيد » إلى أوربة على نية أن يزور معرض باريس سنة ١٨٨٩ ، وفى أثناء سفره من روسيا إلى باريس نزل ميونيخ فى ألمانيا ، وتقابل مع شاه الفرس ناصر الدين فعرض عليه العودة معه إلى فارس ، واعتذر إليه عما كان ، ووعده أن يمهد له طريق الإصلاح الذى يقترحه ، فرفض السيد أولا وقبل أخيراً .

هاهو ذا السيد فى طهران ، يلتف حوله جمهور من العلماء والعظماء ، ويتبلور فيه ما فى نفوس الخيرين من ميل إلى الإصلاح ، فيسعى هو ومن التف حوله إلى وضع المشروعات فى إصلاح الإدارة ، وإقامة العدل ، وتقنين القوانين ؛ وفوق ذلك تنظيم الحكم النيابى للبلاد . والحركة تشتد وتمتدّ ، والشاه يظهر الاستعداد لقبول هـذه المطالب ، والنفوس العاملة تفرح لقرب النصر ، والأمل فى الخير ، ولـكن سرعان ما اكفهرّ الجو وأنذر بالصواعق ؛ فقيد وسوس

الصدر الأعظم للشاه أن الحكم النيابي يسلبهُ سلطانه ، والنظام الإدارى والقانونى المقترح أعلى من مستوى الناس ، ونحو ذلك من مقالات السوء التى سمعنا مثلها فى مصر أيام إقامة « السيد » فيها ، وفى تركيا أيام « مدحت » ، وفى كل مكان وزمان يدور فيهما النزاع بين دعاة الإصلاح ودعاة الرجعية .

فتجهم الشاه له وأحسّ « السيد » الخطر منه ، فخرج إلى مقام « عبد العظيم » أحد حُفَدَاء الأئمة — على بعد نحو عشرين كيلو من طهران — والفرس يعدون مقامه حَرَماً مَن دخله كان آمناً . اتخذه السيد مركزاً لدعايته وخطبه وتهييج الرأى العام لطلب الإصلاح ، و بعضُ العلماء والوزراء والضباط يحجون إليه ليسمعوا خطبه ، ويصغوا إلى آرائه ، ويعودوا وقد شُحِنوا قوة كهربائية بقدر تحملهم للشَّحنة ، وكلهم ثائر هائج يريد الإصلاح . وأقام على ذلك أشهراً والبلاد يزداد غليانها ، ومركز الشاه والحاشية يزداد خطراً ، والمنشورات تذاع ، والكتب الأُغفَال من الإمضاء تصل إلى الشاه بالعدل أو العزل ، وبالحكم النيابى أو تولية غيره .

فما راع « السيد » إلا خمسمائة جندىّ مسلحون يهجُمون عليه غيرَ حافلين بحرَمِ الشيخ عبد العظيم ولا بمرض السيد مرضاً شديداً . وكما يصف هو : « سحبونى على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصَغار وفضيحة لا يمكن أن يُتَصَوَّر دونها فى الشناعة . . . ثم حملنى زبانية [1] الشاه — وأنا مريض — على بِرْذَوْن [2] ، مُسلسَلاً ، فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ؛ وساقتنى جَحْفَلَة من الفرسان إلى خانقين » . ومنها سافر إلى البصرة يعانى ألم المرض الذى اشتد عليه من هذا الحادث ، وكاد يُودِى به لولا لطف الله .

فلو رأيته ثَم لرأيت رجلا أكلت منه حُمَّى الحَمِيَّة حُمَّى المرض ، وقد تجمع

(١) الزبانية : رجال الشرطة . (٢) برذون : دابة .

دمه فى رأسه يحتقن ، وفى وجهه يلتهب ، وفى عينه تقذف بالشرر ؛ كيف يهان هذا الهوان وهو الرفيع النسب ، العزيز الحسب ، العظيم الجاه ، العالى المنزلة فى دينه وشرفه وعقله ، ورغبته فى الخير ؟ كيف يرجوه الشاه أن يأتىَ بلده وَيعِدَه أن يُنفِذ إصلاحه ، ويعلى كلمته ، ثم يعامله معاملة العبد يُطرد ، والذليل يُصفع ، والحقير يهان ؟

لقد آلى أن ينتقمَ منه شرَّ انتقام ، وألا تهدأ نفسه حتى ينزله عن عرشه ، وقد برَّ فيما أقسم . فأخذ يكتب إلى علماء الدين المسموعِى الكلمة يَهيجهم على الشاه ، ولا يتورّع أن يصفه بأقبح الصفات ، ويبيّن ضرره على الأمة ، ويثير عاطفتهم الدينية ، ليشغَبوا عليه حتى يُخلع . وكان الشاه قد تعاقد مع شركة إنجليزية على احتكارها «التنباك» فانتهز الفرصة وأبان الضرر على الأمة من هذا الاحتكار ، وأهاب برجال الدين أن يذودوا عن وطنهم ، فاستمعوا إليه ، وهاجوا على الشاه ، وهيَّجوا عليه ، حتى اضطُرَّ إلى فسخ العقد ، ودفع نصف مليون ليرة تعويضاً للشركة ، فكانت هذه أولَ خطوات الانتقام .

ثم لما عادت إليه عافيته سافر إلى لوندرة ، وحاضر نبلاء الإنجليز وكبراءهم فى مصائب الشاه على فارس ، وساهم فى إخراج مجلة شهرية أسمها « ضياء الخافقَين » تصدر بالعربية والإنجليزية ، كان يكتب فيها مقالات بإمضاء « السيد الحسينى » يفضَح فيها حكومة الشاه ، وسوء الإدارة ، وانتشار الرِّشْوة ، وتعذيب الأهالى ، ويحرض فيها العلماء على عمل صـــغير ، وهو أن يُصدروا فتوى بعدم التعاون مع الشاه ، فإذا هو طريد ؛ ويختار من الألفاظ والجمل ، فى مدح العلماء وقوتهم أضخمها وأقواها ، وفى ذم الحكومة والشاه أهجاها وأقساها .

وهذه زَلَّة كبيرة من السيد جمال الدين ، دعاه إليها حِدَّتُه وحبه للانتقام ؛ إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقيـة إسلامية فى بلاد أجنبيـة تتخذ

من أقواله حجة للتدخل الذى طالما حاربه فى « العروة الوثقى » ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس ؟

لقد كان مدحت باشا فى موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، إذ نفاه « عبد الحميد » ، وأخذه رجاله من دَسْت الوزارة إلى السفينة ، لا مال ولا ثياب ولا أهل ؛ ومع هذا فما وضع قدمه فى أوربة حتى أخذ يسعى فى دفع الشر عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير فى فضل الأتراك على أوربة ، ولا ينطق بكلمة فى ذم عبد الحميد الذى عامله معاملة الشاه لجمال الدين . الحق أنها غلطة من غلطات « السيد » دعا إليها حِدَّة مِزاجِه .

لقد رجاه سفير فارس أن يكفّ عن الطعن فى الشاه ، وعرض عليه المال الكثير ، فقال : لا ، حتى يلقى الشاه ربه .

تجمع عند السلطان عبد الحميد من الأسباب ما حمله على أن يدعو « السيد » إلى الآستانة ، فهو يخشى أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة ، فيكون قوة كبرى إلى قوتهم ، خصوصاً وقد كان السيد اجتمع فى باريس ببعض رجال هذه الجمعية ، وأطلعوه على خطتهم فى إصلاح الدولة العثمانية ، فراقه مذهبهم ، وشجعهم على عملهم ، وسمى جمعيتهم « الجمعية الصالحة » وبلغ السلطان ذلك عنه . ثم إن الشاه وسّط السلطان فى كفّ أذى جمال الدين . لهذا وذاك رجاه السلطان عبد الحميد أن يزور الآستانة فأبى ، ثم سلط عليه حيله ومكايده ، ووعَده — فى تنفيذ آرائه فى الإصلاح — ومنّاه حتى قَبِل ، وما إن وضع قدمه فى الآستانة حتى كان فى قفص من ذهب أُحكم بابه ، لقد وعده السلطان أن له حرية الخروج من الآستانة إذا شاء ، ولكن كان كل ذلك خُدعة .

أمر السلطان عبد الحميد باستقباله استقبالا حسناً ، وأجرى عليه ٧٥ ليرة شهرياً . وأنزله بيتاً ظريفاً فى نيشان طاش ، بالقرب من يلدز ، وجعل تحت أمره

عربة وخدماً وحَشَماً ، بعضهم للخدمة و بعضهم للتجسس ؛ وأحاطه بكل أنواع الرعاية المادية .

لقد خُيل إليه أنه بمعونة السلطان يستطيع أن يوسع دائرة إصلاحه ؛ فيضع خطته لجامعة إسلامية ، يؤلف بها بين فارس والأفغان وتركيا وولاياتها بنوع من الاتحاد أو الحِلف ، ثم يلزم منهج إصلاح الإدارة فى الدولة العثمانية و إصلاح التعليم ، وفاته أن جو الآستانة فى عهد عبد الحميد لا يصلح أن تنمو فيه بذرة صالحة ، وكان له فى مدحت وأشباهه العظة البالغة . ولقد زار الآستانة الشيخ محمد عبده بعد وفاة السيد وفى عهد عبد الحميد ، فقال فيها : « إنه لم ير بيئة فى العالم — ولم يكن يعقل وجود بيئة — كالآستانة فى سوء تأثيرها فى العقل والفكر والقلب ، وإن ذهنه فيها كان ممسوحاً كأنه لم يكن فيه شيء من العلوم والآراء ، ولهذا كان أحرار الترك معذورين فى شرودهم منها ، وتوطين أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الإنسان من ضروب البلاء والمحن » .

قابل السلطانُ السيدَ ، فى يلدز ، فرأى منه شخصية غريبة جريئة فى القول والحركة جُرأةً لم يشهدها من أحد قبل . يطلب منه السلطان أن يترك مهاجمة الشاه ، فيقول « السيد » : إنى لأجلك قد عفوتُ عنه . فيرتاع السلطان لمثل هذا القول — والسيد فى حضرته يلعب بحبات السُّبْحة ، فإذا لفت نظره رئيس « المابين » إلى ذلك بعد خروجه قال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسُبْحته كما يشاء »؟! فيفزَع رئيس المابين ، ويهرُبُ من سماعه هذه الكلمة ، خشيةَ أن يكون قد سمعها أحد .

لقد تحدث إلى السلطان كذلك فى الحكم الشورى للدولة العثمانية ، فخدعه السلطان بتظاهره بحسن الاستعداد له ، وفرح السيد بهذا التظاهر ، واتفق معه على العمل لتكوين الجامعة الإسلامية ، وعرض عليه السلطان منصبَ شيخ

صورة السيد جمال الدين اهداها الى الشيخ محمد عبده وكتب عليها
« تذكرة للشيخ الفاضل محمد عبده يتذكر بها داعيه حوبله الصدور ،
واستغفرت عليه القلوب » سنة ١٨٨٥

الإسلام ، فأبى إلا إذا عُدّل النظام من أساسه أولا . وكرر مقابلته للسلطان والحديث إليه ، وكوّن أخيراً فكرة عن السلطان عبد الحميد بأنه ذكيّ واسع الاطلاع على السياسة الأوربية وألاعيبها ، واسع الحيلة فى العمل على ضرب بعض الدول ببعض ، ولكنه جبان يفسد عليه جبنُه ذكاءه ومعرفته .

كانت المدة الأولى من إقامته فى الآستانة محفوفة بعطف السلطان عليه ولو ظاهراً — يزوره السيد ويشير عليه بالإصلاح ؛ قال له مرة : « خُذْ بِحَزْم جَدِّك السلطان «محمود» وأقصِ الخائنين من خاصّتك الذين يكتمون عنك حقائق ما يجرى فى الولايات ، وخفف الحجاب عنك ، وأظهَر للملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نِعْمَ الحارس الأجل « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولكن ذهب كل ذلك مع الريح ، ووُجد له فى الآستانة خَصم لدود ، هو أبو الهدى الصيادى الذى أتقن من الحيل والدهاء والدسائس والمؤامرات والغلبة على عقل السلطان ما لا ينفع معه إخلاص جمال الدين وصراحته ونصحه ، ففسدت حياة السيد ، وفسد ما بينه و بين السلطان ، وضاع كل أمل له فى التعاون معه على الإصلاح ، وأصبح يقول فى مجالس خاصته : « إن هذا السلطان سُلّ فى رئة الدولة » . واقتصرت قيمة السيد مدة إقامته فى الآستانة — وهى أربع سنين وأشهر — على ما كان يلقيه على زُوّاره وسماره من أحاديث وآراء ، إلى دسيسة بين حين وآخر تحاك حوله ، ويَصْرِف الزمن فى نقضها .

وكل تراثنا منه فى هذه الفترة بعض من أحاديثه اللطيفة وآرائه الطريفة [1] وتحريكه عقول سامعيه إلى التفكير الحر فى الإصلاح وفى الشؤون الاجتماعية .

فى هذه الفترة كانت تظهر من أحاديثه آثار الأسف والحزن ، إذ يَعْرِض

(١) روى كثيراً منها المخزومى فى خاطراته ، وشكيب أرسلان فى ترجمته .

ماضيه فيرى ما كان منه من جهاد طويل فى تحريك الشعوب الإسلامية ثم لم ينبض لها عرق ، وفى رجال عقد عليهم الأمل ثم غدَروا ، وفى شاهٍ خانَ ، وفى جريدة عُطِّلت ، وفى سلطان لا أمل فيه ، وفى بيئة خانقة . ماذا فى يده بعد حياة طويلة قضاها فى الكفاح وفى النفى ، وفى الحبس ، وفى الطرد ، وفى التفكير والتحرير ، وفى إيقاظ العقول النائمة والنفوس الخائرة ؟ لا شىء إلّا أنه أسدٌ فى حديقة الحيوان ، ينشُد حريةَ نفسه فلا يجدها ، بعد أن كان ينشُد حرية الأمم الإسلامية كلها ويأمُل أن يجدَها .

يزوره شكيب أرسلان ، ويدور الحديث حول ما رُوى من أن العرب عبروا المحيط الأطلانطيق قديماً ، وكشفوا أمريكا ، فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بنى آدم ، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا . وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم » ؛ « إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شىء واحد فيهم هو شهواتهم » ؛ « هذا محمود سامى البارودى عاهدنى ثم نَكَث معى ، وهو أفضل من عرفتُ من المسلمين » .

ولكن أحياناً تنقشع عنه سحابة اليأس ، ويعود إلى أمله فى الشرق والمسلمين ، ويعود إلى ذكر الداء والدواء ، والأمل فى العلاج ، ككل النفوس البشرية ، تتردد بين الحزن والسرور ، واليأس والأمل ، وكالطبيعة تتردد بين الصحو والغَيْم ، والإرعاد والإبراق ثم الإشراق .

فها هو ذا فى رفقة من صحبه يحللون أدواء الشرق ويستوصفونه العلاج ، فيقول

إن الدواء هو ما يسير عليه الغربيون من العزة والجرى على قول الشاعر العربى : « عِشْ عزيزاً أو مِتْ وأنتَ كريم » . فإذا كان هذا بعيد المنال ، فلا بد من تربية جيل جديد تربية دينية صحيحة ، يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم عهداً ألا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا يضعضعهم الحِدْثَان(١) ، ولا يَثْنى عزمهم الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب ، بل يَرَوْن فى المتاعب وتحمُّل المكاره لنجاةِ الوطن من الاستعباد غايةَ المغنَم ، وفى عكسه المَغْرَم .

قيل له : وهل هذا فى الإمكان ؟

قال : « إن الأزمة تلد الهِمّة ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك — وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادلهمّتْ فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج ، سُنَّةُ الله فى خَلقه » .

ثم استطرد فى المجلس إلى بيان الخطر مما تستعمله بعض الأمم الأجنبية فى الشرق من إضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومى ، والتنفير من آداب الأمم الشرقية ، لتُحل محلها لغتها وآدابها « مع أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم إذا لم يقم منهم من يحيى آثار رجال تاريخهم ، فيعمل عملهم وينسج على منوالهم » . وكانت محاضراته فى مجالسه تدور حول موضوعات هامة تخلقها المناسبة ، كلها ترمى إلى الإصلاح فى العقيدة وفى الاجتماع وفى اللغة . وبين حين وآخر تُثار حَفيظة(٢) السلطان عليه بما يدبره أبو الهدى الصيادى وصحبه ، فيزور الآستانة — مثلا — الخديو عباس ويريد مقابلة جمال الدين ، ولا يكون هذا إلا باذن ، فيرفض السلطان ويأمر جمال الدين ألا يقابله ، فيقول لرسول الخديو : « إنى كضيف للسلطان أسيرٌ

---

(١) الحدثان : نوائب الدهر وتصاريفه . (٢) الحفيظة : الغضب .

لمُضيفِي فى منزله ، ولكنى أذهب كل يوم إلى « الكاغدخانة » للتنزه ، فإن شاء أن يحضر الخديو إلى هناك فليفعل . فذهب الخديو وقابله على انفراد ، فأطرى الخديو السيد وأبدى له إعجابه به ، وحيَّاه تحية لطيفة ، وهذا كل ما كان . فأطار الجواسيس إشاعاتٍ فى الجو ، وملأُوا التقارير بأن جمال الدين قد تعاقد مع الخديو عباس على تأسيس دولة « عباسية » ، ووضعوا بيتين نسبوهما إلى جمال الدين هما :

شاد الخلافة فى بنى العباس   عباسُ لكنْ نعتُه السفاحُ
ولأنت خير مملَّك ستشيدها   بالبشر يا عباس يا صَفَّاحُ(١)

وقامت الدنيا وقعدت ، واستدعى السلطانُ جمالَ الدين وسأله ، فقال : إن الأمر بسيط ، فقد كتبت التقارير أنّا كنا وحدنا وليس معنا ثالث ، فمن سمع هذا القول ؟ وهل إذا كان هـذا الخبر صحيحاً أقوله أنا أو يقوله عباس ؟ ثم أقسم أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وأنه فى حياته لم ينظم شعراً ، وانتهى الأمر ، ولو — فى الظاهر — بعد جلَبة طويلة ، وضجة مفتعلة .

وحدث أن الشاه ناصر الدين — الذى كان بينه و بين السيد الخصومة التى عرفنا — قد قُتل ، وكان القاتل أحد تلاميذ جمال الدين ، وممن كانوا يزورونه فى الآستانة ؛ ورُوى أنه عندما طَعَن طعنته قال : « خذها من يد جمال الدين » .
ورُوِىَ عن جمال الدين أنه لما بلغه ذلك قال كلماتٍ تدلُّ على الإعجاب بالقاتل ، فذلك كله أرعب السلطان عبد الحميد ، وخاف منه على حياته ، فضَيَّق عليـه فى مقابلاته ومنع زيارته إلا بإذن ، فغضب جمال الدين وعزم على الرحيل من الآستانة ووُعد بإعطائه التصريح بذلك من المفوضيـة الإنجليزية ، ولكن السلطان كان يخاف منـــه فى الخارج أكثر مما يخافه فى الداخل ، وهو تحت سمعه و بصره ، فاسترضاه ورجاه فى البقاء واستعان بإثارة إبائه العارَ من الالتجاء إلى دولة أجنبية

(١) الصفاح : الكثير العفو .

فعدَل . ثم حَلّتْ المشكلةُ نفسَها بمرضِـه بالسرطان فى فمه ثم وفاته ، وشاعت الإشاعات المختلفة حول موته من إهمال مقصود فى معالجتـه والاتفاق مع طبيب السلطان للتخلص منه .

وأيّاما كان فقد مات وشيعت جنازته كأقل الناس — لم يسر فيها إلا أفراد معـدودون غلبتهم الجرأة والوفاء ، ودُفن كما يدفن عامة النـاس ، ومُنعت الجرائد فى الولاية العثمانية من تأبينه .

— ٦ —

ما تعاليم السيد فى كلمة ؟ وما أغراضه فى جملة ؟

يقول لوثروب ستودارد الأمريكى Lothrop Stoddard : « إن خلاصـة تعاليم جمال الدين تنحصر فى أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصـدور كما كانت فى قلب بطرس الناسك ، ولم يزل التعصب كامنـاً فى عناصرها ، وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولهـا المسلمون للإصلاح والنهضة .

ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامى أن يتحد لدَفْع الهجوم عليه ليستطيع الذود عن كيانه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه[1] أسباب تقدم الغرب والوقوف على عوامل تفوّقه ومقدرته » .

ويقول «جولد زيهر» : «إن جمال الدين كان — كما يرى براون — فيلسوفاً ، كاتباً ، خطيباً ، صحفياً ؛ وفوق ذلك كان سياسياً ، يرى فيه محبوه وطنياً كبيراً ، وخصومه مُهَيِّجاً خطيراً ؛ وكان له أثر بالغ فى النزعات الشورية التى حـدثت فى عشرات السنين الأخيرة فى الحكومات الإسلامية ، وكان يرمى إلى تحرير الممالك

(١) الاكتناه : الوصول إلى الـكنه والحقيقة .

الإسلامية من السيطرة الأوربية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبي ، وإلى ترقية شؤونها الداخليـة بالإدارات الحرة المنظمة ؛ كما كان يرمى إلى جامعـــة تنتظم الحكومات الإســلامية ، ومنها إيران الشيعية ، لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوربى فى شؤونها » .

ويقول السـيد جمال الدين عن نفسه : « لقد جمعت ما تفرق من الفـكر ، ولمت شَعَثَ التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهنـــد وفيها تثقف عقلى ، فإيران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من حجاز هو مهبط الوحى ، ومن يمن وتبابعتها ، ونجد ، والعراق ، و بغـداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيهـا ، والأندلس وحمراؤها ؛ وهكذا كل صُقْع ودولة من دول الإسلام وما آل إليه أمرهم . فالشرق الشرق ؛ فخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرِّى دوائه ، فوجدت قتل أدوائه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحـاد واتحادهم على الاختلاف . فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم » .

ويقول الشيخ محمد عبده : « أما مقصده السياسى الذى قد وجـه إليه كل أفكاره وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته — وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله — فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تقليصُ ظل بريطانيـــا فى الأقطار الشرقيـة » .

فيكادون كلهم يُجمِعُون على أن له غرضين واضحين :

(١) بث الروح فى الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه ، وتنقية عقيدته من الخرافات ، وأخلاقه مما تراكم عليها ، واستعادة عزته ومكانته .

(٢) مناهضته الاحتلال الأجنبي حتى تعود الأقطار الشرقية إلى استقلالها مرتبطة بروابط على نحو ما ؛ لتتقى الأخطار المُحْدِقة بها .

كان فى حياته يحمل فى يديه العَلَمين معاً ، فلما مات تفرق العَلَمان وتداولهما المصلحون بعدُ ، كلٌّ منهم يحمل أحد العَلَمين — هذا أو ذاك — لا يجمع بينهما . فالشيخ محمد عبده — مثلا — أكبر تلاميذه وأقدرهم — خلفه فى حمل العلم الثقافى لا السياسى . لقد تبين بعدُ أن اشتغاله بالسياسة فى العُروة الوثقى ونحوها إنما كان مدفوعاً إليه بقلب جمال الدين لا بقلبه هو ، ولذلك اقترح عليه بدل إنشاء الجريدة إنشاء مدرسة للزعماء كما تقدم . فلما استقل بنفسه كان عمله فى بيروت عملا تعليميًّا صِرْفاً ؛ ولما عاد إلى مصر كان بَرنَامَجه التعليم والتثقيف بأوسع ما يستطيع وأتمّه ؛ ولذلك اقترح على أولى الأمر بعد عودته أن يعيِّن ناظراً لدار العلوم أو أستاذاً فيها ، فخَشُوا من اتصاله بالتلاميذ لتاريخه الماضى ، وعينوه قاضياً أهليًّا ليكونوا بمأمَنٍ من جانبه ؛ بل رأيناه يعلن فى كتاباته السياسية وحروفها ومشتقاتها كراهية لها ، بل رأيناه يصرح بأن الواجبَ الأول على المصلح تثقيف الشعب وتهذيبه ، ثم الاستقلال يكون الخاتمة ؛ بل رأيناه يضع خُطةَ إصلاحه بأن يتعاون مع الإنجليز ويصادقهم ، ويتفاهم معهم لينال منهم — بأقصى ما يستطيع — إعانته فيما ينشد من إصلاح داخلى تثقيفى . وهذا سبب ما كان بينه و بين « مصطفى كامل » والحزب الوطنى من خصومة ؛ بل ربما كان هذا سبباً أيضاً فيما نلاحظه من بعض الفتور فى العلاقة بينه و بين أستاذه السيد جمال الدين ، فقد كتب من مصر للسيد — وهو فى الآستانة — كتاباً غُفْلا من الإمضاء وتلميحاً لبعض الأشخاص من غير ذكر أسمائهم ؛ فهاج السيد وكتب إلى الشيخ محمد عبده جواباً من نار على هذا التصرف ، يُؤَنِّبه فيه على الجبن والخوف ، ويقول : « تكتب ولا تُمْضِى وتَعقِد الألغاز ؟ . . . أمامك الموتُ ، ولا ينجيك

الخوف ... فكن فيلسوفاً يرى العالم أُلعوبة ، ولا تكن صبيًّا هَلُوعاً » . ولعل هذا آخرَ ما كان بينهما من تواصل .

وما كان بالشيخ محمد عبده من جبن ، ولكن الجسم الملتهب يشعر بالجسم المعتدل بارداً ، وقد كتب السيد جوابه هذا وقد ملكته الحِدَّة ، وكم مَلَكَتْهُ !

على كل حال اختطَّ الشيخ محمد عبده لنفسه خطة اقتنع بها كل الاقتناع ، وهى رفع أحد العَلَمين دون الثانى، فأخلص لمبدئه، و بذل فى ذلك جهده وصحته وعقله وماله ، واتجه إلى كل نواحى الثقافة يغذيها و ينميها و يصلح بقدر ما يستطيع إنسان أن يعمل .

أما الذين رفعوا العَلَمَ الآخر — علم مناهضة الحكم الأجنبى — فهم عبد الله نديم ، ثم مصطفى كامل وفريد ، ثم سعد زغلول ؛ فساروا على مثل دعوة السيد جمال الدين، مستخدمين ما استجدَّ من أساليب ، وما استعمله الغرب من وسائل .

هذا فى مصر ومثله فى سائر أقطار الشرق ، من زعماء حملوا لواء الإصلاح الثقافى ، وزعماء حملوا اللواء السياسى مما يطول ذكره ؛ وقد نعرض — فيما نكتب بعدُ — لبعضه . ولو انتبه « السيد » اليوم من رقدته لحِدَ من الشرقِ سِيرتَه ، وإن كان أكبر الظن أنه يحتدّ عليه لبطئه ؛ فقد كان — رحمه الله — حارّا حادّ المزاج لا يرضيه من الإصلاح السير على الأقدام ولا ركوب القطارات ، بل لا يرضيه بعضَ الرضا إلا ركوب الطائرات وحرب الدبابات . يقول الشيخ محمد عبده فى وصفه : « إنه طَموح إلى مقصده السياسى ، إذا لاحت له بارقة منه تعجّل للسير للوصول إليه ؛ وكثيراً ما كان التعجُّل علة الحرمان . . . وهو شجاع مِقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حَديد[1] المزاج ؛ وكثيراً ما هدمت الحدَّة ما رفعته الفطنة » .

---

(١) حديد : فيه حدة ، أى شدة واهتياج .

ثم كان أشبه الناس فى سياسته بعلىّ لا بمعاوية ، كانت سياسة معاوية عنوانها : « إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض فى كثير من الباطل » . أما « على » فلا يريد الخوض فى الباطل ليصل إلى الحق ، بل لا يريد إلا الحق من طريق الحق ، وإلا فلا كان . وهكذا كان جمال الدين . قال الشيخ محمد عبده : « ماذا كان يضر السيد لو مهد لإصلاحه — وهو فى الآستانة — بالسعى عندالسلطان فى إعطاء أبى الهدى الصيادى خمسمائة جنيه ونيشاناً لابنه أو لأخيه ، فإذا رأى أبو الهدى أن « السيد » يخدُمه فإما أن يواتيه ، وإما ألا يناويه »[1] ولكن أنّى للسيد أن يطلب هذا الباطل وهو يعتقد أن أبا الهدى سافل دنىء إذا طلب له شيئاً فالشنق ؟

ولما كان السيد يحكى لخاصته إقناعه للسلطان بأن حادثة الخديو عباس دسيسة ، وأن السلطان اقتنع بذلك ، وأخبره أن هذا من دسائس أبى الهدى ، قال له عبد الله نديم : ليتك عندما صرح السلطان بذلك ذكرت له دسائسه وضرره . فغضب عند ذلك جمال الدين ، وقال : « أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ، أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، أو أن أكون هَمَّازاً مَشَّاء بِنَمِيم[2] » .

وهكذا يريد الحقّ غاية ، ويريد الحق وسيلة ؛ والدنيا علمتنا أن سياسة معاوية هى التى نجحت ، وأن سياسة الدنيا تقوم على المصالحة وأخذ شىء بترك شىء . فمن أراد الحق كاملا وإلا فلا ، فلينشد ذلك فى المثل الأعلى للخُلُق لا فى السياسة ، أو فلينتظر حتى تخضع السياسة للخُلق .

* * *

بقيت مسألة هامة فى تاريخ السيد ، وهى اتهامه بالإلحاد — وقد أشرنا إليها من قبلُ . ولرمى السيد بالإلحاد تاريخ طويل ، فقد رُمى به فى الآستانة

---

(١) يناويه : يناوئه ، أى : يعاديه .

(٢) همّاز : يغمز ويعيب . مشاء بنميم : يسعى بالوشاية ويشيع المعايب .

عند زيارته لها أولَ مرة ، إذ خطب فى دار الفنون خطبة ذكر فيها أن المعيشة الإنسانية أشبه شىء ببدن الحىّ ، وأن كل صناعة بمنزلة العضو ، فالملك كالملح ، والحِدَادة كالعضد ، والزراعة كالكبد . . . إلخ ، ولا حياة للجسم إلا بالروح ، وروحُ المعيشة الإنسانية النبوةُ والحكمة .

فاتهموه بالإلحاد لهذا ، وشنعوا عليه بأنه يقول إن النبوة صناعة ، وشَغَبوا عليه ، حتى نُصِح له بالخروج من الآستانة .

فلما جاء إلى مصر اتهمه بعض العلماء كالشيخ عليش و بعض العامة بالإلحاد ، والإلحاد فى نظر هؤلاء وأمثالهم شىء هيِّن . يكفى ألا يسير سيرتهم ، ولا يلبس لباسهم ، وأن يدخن السيجار ، ويجلس فى المُقْهَى ، ويلتف حوله بعض اليهود والنصارى ، ليحكموا عليه بالإلحاد . وكما أن عقيدة كل إنسان لها لون خاص ، فكذلك تصوره للإلحاد يتكيف بذهنه .

ثم لما ترْجم سليم بك عنحورى للسيد جمال الدين فى كتابه «سحر هاروت» رَمى السيد أيضاً بالإلحاد فقال : « إنه برّز فى علم الأديان حتى أفضى به إلى الإلحاد والقول بقدم العالم ، زاعماً أن الجراثيم الحية المنتشرة فى الفضاء ترقى وتتحوَّر[1] إلى ما نراه من أجرام ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وَهْمٌ نشأ عن ترقى الإنسان فى تعظيم المعبود على حسب ترقيه فى المعقولات ... الخ » .

وقد قابله الشيخ محمد عبده ، وعاتبه على نشره مثل هذا القول من غير تحرٍّ وتدقيق ، فكتب سليم بك فى الجرائد يصحح فيه قوله ، ويقول : إنى قابلت الشيخ محمد عبده ، فأوضح لى بدلائل ناهضة و براهين داحضة ، أن ما تناقله الألسن من هذا القبيل ما كان إلا من آثار الحسد ، وأن السيد كان أثناء مناظراته الجدلية يشرح النِّحَل والبدع وأقوال المعطِّلين شرحاً وافياً ، ثم يقيم الحجج على

(١) تتحور : تستدير .

بطلانها ؛ فلعل سامعاً سمع منه هذا القول فى مثل هذا الموقف فنسبه إليه ؛ وقال : إنه لم يسمع من السيد هذا الكلام ، و إنما تلقاه عن بعض المصريين والسوريين . ونقل كلاماً للسيد اطلع عليه فى وجوب الدين ، وضرورة الاعتقاد بالألوهية ، ومزايا الإسلام ؛ وختم مقاله بقوله : « إننا سارعنا لإذاعة هذا ، شأن المؤرخ العادل ، وقياماً بحق الأدب ، وضنًّا بفضل هذا الرجل الخيِّر من أن تناله ألسنة من لا يعرفونه خطأ وافتراء . والله يتولى الصادقين » .

ثم رأينا ما اتهمه به « رينان » بعد ما جالسه فى باريس فكتب كلمته التى ذكرناها من قبل ، وهذا أدق موقف ؛ فرينان فيلسوف واسع الذهن دقيق التعبير ، لا يلقى الكلام على عواهِنه ، خصوصاً وقد ورد فى ردّ السيد جمال الدين عليه ما يفيد أنه سلم للمسيو رينان بأن الإسلام كان عقبة فى سبيل العلم .

ولكن فى رأيى أن السيد عبر تعبيراً غير دقيق فى تفرقته بين طبيعة الدين الإسلامى وسيرة المسلمين ، خصوصاً أنه أخذ على رينان تقصيره فى أنه لم يبحث هل هذا الشر نشأ عن الديانة الإسلامية نفسها ، أو عن الصورة التى تصور بها الإسلام ، أو عن أخلاق بعض الشعوب التى اعتنقت الإسلام ؟ وقراءتنا لرده تشعرنا بأنه وقع فى هذا اللَّبْس ، وأنه كان يدور حول فكرة أن الدين دائرة ، وللعلم دائرة ، ويجب أن يسبح كلٌّ فى دائرته من غير طغيان ، وأن الدين يجب ألا يعارض العلم فيما ثبتت صحته علميًّا — وهذه الآراء الواضحة فى ذهننا الآن ، والواضحة فى تعبيرنا ، لم تَرِد واضحة فى رده ، فكان ردًّا مهوشاً ، كما كانت محاضرة رينان نفسها كذلك .

وليس من شك فى أن السيد كان حر التفكير قويًّا على الجدل ، متشعب طرائق الحجج ، فمن الممكن جدًّا أن يكون فى مجالسه مع رينان تبحبح [1]

(١) تبحبح : توسع وتبسط .

فى بعض الأقوال التى من هـذا القبيل ، والتى تحدث لكثير من كبار المفكرين فى بعض اللحظات ، فحكم رينان عليه هذا الحكم الشامل خطأ .

ثم كان « السيد » ، كما يحكى عنه الشيخ محمد عبده و بعض خاصته ، متصوفاً يدين بعقيدة المتصوفة ، وهى مبهمة غامضة تنتهى بوحدة الوجود ، والتعبير عنها قد يلتبس — إلا على الخاصة — بالإلحاد ، ومن أجل هذا رُمى محيى الدين بن العربى وأمثاله بالكفر لعدم الدقة فى وزن الأقوال .

إن حياة «السيد» مملوءة بالدعوة الحارة إلى الدين ، و إلى التوحيد ، فى كتاباته فى « الرد على الدهريين » وفى العروة الوثقى ، وفى مجالسه الخاصة .

يذكر بعض خاصّته أنه سمع رجلا كبيراً تكلم كلمة فى حق النبى . فأمر « السيد » من معه من الأفغانيين بضربه ، فضربوه حتى خرج يَزْحَف .

وحكى المخزومى مجلساً شهده ، إذ زار رجل جمال الدين فى بيته فى الآستانة وجرى الحديث فقال هذا الرجل : « إنى قرأت كتب الفلاسفة فثبت لى أن الله غير موجود ولا يعتقد به إلا حيوان » . فضاق صدر السيد ولم يجبه ، ودعا الحاضرين إلى حديقة البيت وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج ، فتصايحت الديكة وغردت الطيور ، فقال السيد : « كيف لا يفضُل أضعفُ حيوانٍ أعجمَ يذكر الله إنساناً ناطقاً ينكر وجود الله ؟! كيف يجرؤ على إنكار واجب الوجود من يأكله الدود ؟! إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفات الأجسام ! » فخرج الرجل الملحد خَجِلا من غير أن يُوَدّع .

لا يمكن أن تصدر هذه الكتابات وهذه الأقوال وهذه الغَيْرة من ملحد ، إلا أن يكون قد بلغ الغاية فى التصنُّع والنفاق . ولم يكن عيب جمال الدين نفاقه ، إنما كان عيبه إفراط فى صراحته وعدم استطاعته كتمان ما يعتقد ، ويقول : « لا يكون الكمال النسبى فى البشر إلا متى كثر إعلانهم وقلّ كتمانهم » .

وأكثر متاعبه فى الحياة كان سببه جهره بما يصح أن يكتم وإعلانه ما يجب أن يُسر ، فأخلاقٌ مثل هذه تؤكد أنه لو كان السيد ملحداً يرى الحق والخير فى الإلحاد لدعا إليه فى صراحة وجرأة وشجاعة من غير ما مواربة ولا إيماء .

لقد كان يؤمن بالأصول ، ويترك لعقله الحرية فى الفروع ، ويصل فى ذلك إلى نتائج غريبة عن أذهان الجامدين المتزمتين فيُرمى بالإلحاد ؛ فكان ينفر من التقليد ويدعو إلى الاجتهاد ، ويُذكر فى مجلسه قول للقاضى عِياض ويتمسك به راووه فيقول «السيد» : «سبحان الله ! إن القاضى عياضاً قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضى عياض وغيره من الأئمة ؟ إذا كان القاضى عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا ! ؟

« ما معنى بابُ الاجتهاد مسدود ، وبأىّ نص سُدّ ، أو أىّ إمام قال لا يصح لمن بعدى أن يجتهد لينفقه فى الدين ، ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه ؟ !

« إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » .

ويرى أن التفرقة بين أهل السنة والشيعة أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن ورسالة محمد ، فقيم الخلاف ؟ ولم القتال ؟ .

ويقول : إن الأديان الثلاثة كلها أساسها واحد ، وإنما يوسع شُقّةَ الخلاف بينها اتجار رؤساء الأديان بها .

ويُفيض فى اشتراكية الإسلام ويقارن بينها وبين اشتراكية الغرب ، فيرى أن اشتراكية الغرب بعث عليها جَور الحكام وعوامل الحسد فى العمال من أرباب الثراء ، أما الاشتراكية التى كانت فى الإسلام فملتحمة مع الدين، ملتصقة مع الخُلق، باعث عليها حب الخير ، كما فى أعمال عمر وأبى ذَرّ .

ويعرِض فى مجلسه للحديث عن الرجل والمرأة والسفور والحجاب فيطيل القول فى ذلك . وخلاصة رأيه أن المرأة فى تكوينها العقلى تساوى الرجل ، فليس للرجل رأس وللمرأة نصف رأس ، والتفاوت الذى بينهما لم يأت إلا من التربية وإطلاق السراح للرجل وتقييد المرأة للبيت ولتربية الجيل ، ومهمتها فى هذا أهم وأسمى مما يقوم به الرجل من كثير من الصناعات ؛ ويخطئ من يطلب مساواة الرجل بالمرأة فى كل شىء ، فلكلٍّ وظيفته ، وعلى تعاونهما — كلٌّ فى عمله — يقوم المجتمع ، ولا مانعَ أن تعمل المرأة فى الخارج إذا فقـدت عائلها واضطرتها ظروفها إلى ذلك ، ولكن بنِيَّة صالحة وذيل طاهر . ثم قال : « وعندى أن لا مانع من السفور ، إذا لم يُتخذْ مَطِيّةً للفجور » .

ويقول : « إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ، فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله . وقد عم الجهل وتفشّى الجمود فى كثير من المتدِّين برداء العلماء ، حتى اتُّهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلميـة الثابتة ؛ والقرآن برىء مما يقولون ، والقرآن يجب أن يَجِل عن مخالفة العلم الحقيقى خصوصاً فى الكليات » .

والسيّد واسع الصدر ينقد « شبلى شميل » فى آرائه الملحدة التى جاوز فيها مذهب «داروين» ، ومع ذلك يقدره لصبره على البحث وجرأته فى الجهر بما يعتقد ولو خالف الناس . وهكذا وهكذا مما يراه المتزمِّتون خروجاً عن المألوف ، فما أقرب ما يقذفون بكلمة الإلحاد !.

سُنَّة مألوفة فى الكون ، لا يأتى مصلح سابق لزمنه إلا رُمى بالزندقة أو الكفر أو الجنون ، ثم أُوذى ممن يسعى فى الخير لهم ، وممن يضحى بسعادته لسعادتهم؛ ولا يقدَّر حق قدره إلا بعد أن يهدأ الحسد بموته ، وتتجلّى صحة دعوته بعد زمنه .

* * *

لقد قصدتُ الآستانة سنة ١٩٢٨ بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة ، فرأيت واجباً أن أزور قبر هذا الرجل العظيم ، وأستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة أعماله ، فسألت عنه الكثير فلم يعرفه ، ورأيت رجلا أفغانيًا يعمَل خازناً لمكتبة الشهيد على ، فوصف مكانه لى ، فذهبت مع صديقى « العَبَّادى » عصر يوم الأحد ٨ يوليه إلى « ماچقة » أو « متشكة » ، فوجدت فى رَبْوة على مدخل البوسفور مقبرة قد انتثرت فيها المدافن ، ودلنا شيخ المقبرة على مدفن السيد ، فعلمنا أن قبره كان قد تَشَعَّثَ ولم يُعْنَ به أحد ، وكادت تضيع معالمه ولم يفكر فيه أحد من أهل الشرق الذين أفنى فيهم حياته ، إنما ذكره مستشرق أمريكى حضر إلى الآستانة سنة ١٩٢٦ وَنقّب عن قبره حتى وجده ، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرُّخام ، وأحاطها بسُور من حديد ، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ، وفى وجه آخر كتابة تركيّة ترجمت لنا كما يأتى: « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم المسلمين فى أنحاء العالم الخيّر الأمريكانى المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ » .

وقفنا على قبره، وقلت : هنا رقد محيي النفوس ، ومحرر العقول ، ومحرك القلوب، وباعث الشعوب ، ومزلزل العروش ، ومن كانت السلاطين تغار من عظمته ، وتخشى من لسانه وسطوته ، والدول ذات الجنود والبنود [1] تخاف من حركته ، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفساً بحريته .

---

(١) البنود : الرايات .

هنا خَمَد من كان يشعل النار حيث كان ، فى الأفغان ، فى مصر ، فى فارس، فى باريس ، فى لندرة ، فى الآستانة .

هنا باذر بذور الثورة العرابية ، ومؤجج النفوس للثورة الفارسية ، ومحرك العالم الإسلامى كله لمناهضة الحكومات الأجنبية ، والمطالبة بالإصلاحات الاجتماعية . هنا من حارب الحكم الاستبدادى فى مصر ، وناصرَ الدين فى فارس ، وانجلترا فى باريس ، وحارب الجهل والأمية والذلة فى الشرق ، والجاسوسية والنفاق فى الآستانة . ولم ينتصر عليه شىء إلا الموت .

لقد أجللناه وأعظمناه ، والتهبت نفوسنا لذكراه ، فكيف كان مَحْضَره ومَرْآه ، رحمه الله .

بعض ما أثر عنه :

جمع محمد باشا المخزومى بعض ما دار فى مجالسه واستشار الأستاذ فى اسمها ، فقال : سمها « خاطرات » ؛ فقال المخزومى : إن بعض الأصدقاء نبهنى إلى أن هذه اللفظة غير صحيحة فى اللغة ، والأقرب للصواب أن نسميها « خطرات » أو « خواطر » . فقال : قل « خاطرات » ولا تبال بمن فسد لسانهم ولا يَصلحون إلا للأجوف والمهموز ، ولا يحسنون جملة تنقرُ حبة القلب أو تُطرب السمع .

ولما جاء مصر أعجبه بَرْنَامَج الماسونية من دعوة إلى « الحرية والإخاء والمساواة » ، فانضم إليها ، وعُرض عليهم فى المحفل يوماً إعانة لأحد الإخوان ، فسأل « الأستاذ » : هل الأخ مريض ؟ قالوا : لا . قال : هل هو صحيح البنية ؟ قالوا : نعم . فقال : « صحة البدن وذل السؤال لايصح أن يجتمعا لإنسان » .

ولما أخرج من مصر ذهب بعض محبيه إلى السويس يحملون له مقداراً من المال عرضوه عليه وسألوه أن يقبله قرضاً . فقال لهم : « أنتم إلى هذا المال أحوج ، والليث لا يعدَم فريسته حيثما ذهب » .

ولما استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة سنة ١٨٩٢ ووصل إليها ، كان في انتظاره الياور السلطاني ، فسأله : أين صناديقك أيها السيد ؟ فقال : ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب . فقال الياور : حسناً ! أين هي ؟ فقال السيد : صناديق الكتب هنا (وأشار إلى صدره) ، وصناديق الثياب هنا (وأشار إلى جبته) .

وقد قال : « كنت أولَ عهدي أستصحب جُبّة ثانية ، ولكن لما توالى النفي صرت أستثقل الجبة الثانية ، فأترك التي عليّ إلى أن تَخْلَق[1] فأستبدل بها غيرها » .

وكان يجالس السلطان عبد الحميد كثيراً ، فسئل عن رأيه فيه ، فقال : « إن السلطان عبد الحميد لو وُزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاءً ودهاءً وسياسة ، خصوصاً في تسخير جليسه ... ولا عجب إذا رأيناه يذلّل مايُقام في ملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته ، مقتنعاً بحجته ، سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير . ولكن يا للأسف عيب الكبير كبير ، والجبن من أكبر عيوبه » .

وعرض عليه السلطان عبد الحميد منصِب مشيخة الإسلام ، فأبى إلا أن يُعْمل عمل أساسي يتغير به النظام الحاضر ، وقال : « إن وظيفة العالِم ليست بمنصِب ذي راتب ، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ، ورُتبته ما يُحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم » .

وعاش جمال الدين عَزَباً طول حياته ، وكان كلما شكا له أحد كثرة العيال وقلة ذات اليد يعينه على قدر استطاعته ، فعرض عليه السلطان يوماً أن يزوجه جارية حسناء من قصر يلدز ، فامتنع السيد من ذلك ، فسئل : هل تؤيد رأي أبي العلاء:

هــــذا جنــاه أبي عَلَـ ـيّ وما جنيتُ على أحد

---

(١) تخلق : تبلى .

قال : كلا ، كيف يصح لعاقل أن يعتبر الزواج جناية و به بقاء النوع واستكمال حكمة العمران ؟ أما أنا فمعرفتى بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معانى العدل ، وعجزى عن القيام به دفعنى أن أتّقى عدم العدل ببقائى عَزَباً » .

فقال له طبيب يهودى كان من خاصّته : فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته ؟ فتبسم السيد وقال له : « إن الطبيعة أحكم منك ، فهى تدبر نفسها ، ومن ترك شيئاً عاش بدونه » .

قيل له : إنك تقبل من السلطان عطاءه من المال فلم لا تقبل عطاءه من الجوارى الحسان ؟

قال : أما المال الذى يعطينيه فإنى أجد له — على قدر اجتهادى — أكفاء يقومون بأداء الواجب نحوه ، وأما الزواج بالجارية الحسناء فما أنا بالكفء لها ، ولستُ بوليّها لأتحرى لها كفؤَها .

وكان السيد جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء الشيخ محمد عبده وفضله ، وكان كلما ذكره يقول : « صديقى الشيخ » ، وكان السيد عبد الله نديم فى آخر أيامه يكثر من التردد على منزل جمال الدين ، فقال له يوماً : قد أكثرت من الثناء على الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك صديق غيره ، وتنعَت غيره بقولك صاحبنا ، و « فلان من معارفنا » . فتبسم السيد جمال الدين وقال : « وأنت يا عبد الله صديقى ؛ ولكن الفرقَ بينك و بين الشيخ أنه كان صديقى على الضَّرّاء ، وأنت صديقى على السَّرّاء » ، فسكت النديم .

وكان جمال الدين يهزأ بمبدإ « داروين » الذى يُعنوَن « بتنازع البقاء » ، ويقول : إن المبدأ هو « تنازع الفناء » ، ويقول : إن البقاء الذى ينبغى أن يطلب ولا يعتريه فناء ليس فيه تنازع ولا نزاع ، والتنازع القائم الآن إنما هو على أشياء تفنى ، والمنتزِع والمُنازِع والمنزوع منه سواء فى المصير إلى الفناء ، فكان الأولى أن يقال : « تنازع الفناء » .

قيل له : وهل يُجمع العالم المتمدن كله على مثل هذا الخطأ ؟

فقال : وما العالم المتمدن ؟ هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شامخة وقصور مزخرفة ينسج فيها القطن والحرير بأصباغ كيمياوية مختلفة ألوانها ، ومعادن ومناجم ، واحتكار تجارات أتت لهم بثروات؛ ثم هل غيرُ التفنن فى اختراع المدافع المروِّعة والمدمرات والقذائف وباقى المخربات القاتلات للإنسان ، تتبارى فيها تلك الأمم الراقية المتمدنة اليومَ ؟

لو جمعنا كل تلك المكتسبات العلمية ، وما فى مدنيات تلك الأمم من خير ، وضعَّفناه أضعافاً مضاعفة ووضعناه فى كِفَّةِ ميزان ، ووضعنا فى الأخرى الحروب وَوَيْلاتها ، لكانت كِفة العلوم والمدنية والتمدن هى التى تنحط وَتغُور ، فالرقى والعلم والتمدن على ذلك النحو إن هو إلاّ جهل محض ، وهمجية صِرفة ، وغاية التوحش ؛ فالإنسان فى ذلك أحط من الحيوان .

هل سمعت أن ثلثمائة ألف أفعى وقفت تُجاهَها مثلها وتقلبت بينها الأنياب وقاتل بعضها بعضاً ؟ أو هل وقفت الأسود صفوفاً وتناهشت لحومها وسالت دماؤها ؟ فليس ثَمة مدنية ولا علم ، ولكن جهل وتوحش .

* * *

وللسيد جمال الدين كلمات حكيمة كان يقولها فى مناسباتها .

كان إذا أقسمَ قال : « وعزة الحق وسر العدل » — الحقائق لا تزول بالأوهام — من سَفَهِ الرأى أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمَشيب فقط — الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل — لا يؤمن بِرُبُوبيَّةِ القوة إلا شبح الضعف — الأكفاء فى العمر لا يكونون على الغالب أصدقاء — تطويل المقدمات دليل على سَقَم النتائج — من رَهِبَ الملوك لغير جَرِيرَة فهو الصُّعلوك — صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخَرَس — ألف قول

لا يساوى فى الميزان عملاً واحداً — إسراف الإنسان بصحته أضرّ من إسرافه بثروته — بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة — القبة الجوفاء لا ترجّع إلا الصدى — شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل — الأديب فى الشرق يموت حيًّا ويحيا ميتاً — قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام — القوىّ من الشجر لا يعجّل بالثمر — (اللغة) العربية وسّعها البدو فى البرارى والقِفار ، وضيّقها الحضَر فى المدن والأمصار — العلم قد يكون فى الأحداث ولكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ .